خوان رولفو

بيدرو بارامو

ترجمة: صالح علماني

العنوان الأصلي للكتاب: Pedro Paramo

اســـــــم المـــؤلف: Juan Rulfo

اســـــــم المترجم: صالح علماني

الطبعة الثانية ــ 1999

دار الطليعة الجديدة

سوريا ــ دمشق ــ ص.ب 34494

تلفاكس: 2775872

الاخراج: هالة فطوم

صمم الغلاف: جمال سعيد

لوحة الغلاف للفنان: فائق دحدوح

مقدمة

في عام ١٩٤٧، شق أغوسطين يانييث - بروايته: **على حد الماء** - الطريق وسط المأساة وومضات الثورة المكسيكية ونال امتياز تحطيم طوق مرحلة أدبية في وطنه. وتراجعت الروايات الريبورتاجية، والروايات التأريخية، وروايات المذكرات التي تدور حول شخصيات تاريخية جامدة، منتزعة بكل رصانة من الذكرى، تراجعت إلى الوراء وإلى الأبد. واستطاعت تيارات كانت تضرب خلال سنوات - أبرزها تيار الروائي ريفويلتاس -، أن تفتح الثغرة وتتنطلق خارجاً لتنصهر في اتجاهات أخرى وتولد مدرسة روائية جديدة، يكون خوان خوسيه اريولا، خورخي لوبيث بايث، لويس سبوتا، سيرخيو غاليندو، روساريو كاستييانو، كارلوس فوينتيس وخوان غارسيا بونثي، هم بعض من يرسم ملامحها. وفي هذه المرحلة الجديدة، في عام ١٩٥٣، يبرز خوان رولفو، وهو في الخامسة والثلاثين من العمر، بمجموعة قصص قصيرة ستؤثر فيما بعد على كتّاب من جميع أنحاء أميركا اللاتينية. المجموعة القصصية بعنوان: **السهب الملتهب**.

ثمة اتفاق منذ البدء بين الجمهور والنقد: رولفو قصاص استثنائي، يعيد خلق اللغة الفلاحية بصورة عجيبة وبتقنية جديدة، موضوعيته متماسكة، أصيلة، ناقدة، وكل هذا باقتصاد مذهل في الوسائل وبشاعرية غريبة. واعتبر رولفو في السنتين التاليتين لصدور الكتاب، طليعة الواقعية الجديدة المكسيكية، طليعة الفولكلورية، طليعة الظُرف، طليعة الأدب المعبر عن

السكان الأصليين (مع أن قصصه، وهذا مثير للفضول، لا تعكس حياة أي هنود محليين) وطليعة الكتاب الملتزمين، ورفعه بعض السياسيين كراية.

وكان رولفو يقول عن كل هذا: «لست كاتباً محترفاً، إنني مجرد هاوٍ أكتب عندما تأتيني الهواية».

ـ وأول بوادرك ككاتب؟ ـ يسأله مواطنه خوان خوسيه اريولا، أثناء محاضرة في صالة بونثي.

ـ لقد كنت أعمل في أرشيف للهجرة، في الإدارة الاتحادية، في الحكومة. وهذه هي الطريقة المثلى ليتركوا أحدنا هادئاً...

ليتركوا أحدنا هادئاً. ربما تكون هذه العبارة التي قالها رولفو هي خير ما يحدد شخصيته، ويميزه سيكولوجياً. لأن رولفو هو الكاتب المكسيكي الوحيد الذي لا يعبأ بالشهرة، حتى أنه لا يرد على رسائل معجبيه ويمقت الحياة الاجتماعية، ويمكن رؤيته فقط في مقهى «تشوفاس» في الركن الأكثر انزواء، وحيداً دائماً، صامتاً، إذا دنيت منه نفر.

ـ ... وفي الأرشيف، يستبدلون الوزراء ويستبدلون الموظفين المهمين، أما نحن الأرشيفيين فإنهم ينسوننا. ـ هكذا يتابع خوان رولفو.

* * *

عندما ظهرت رواية بيدرو بارامو عام ١٩٥٥، انهار برج الواقعية الذي شيدوه لرولفو، انهار مع الراية ومع كل شيء: الرواية محض شعوذة. لكن النقاد لا يفقدون الحماس، لأن رائحة اللغة تقول إنها رواية حاذقة، فيشيدون برجاً آخر، أعلى قليلاً من سابقه، لكنه أضعف بنياناً. لقد أصبح رولفو الآن السيمياوي الأكبر، الساحر الأعظم الذي يذرع مخابئه وأكشاكه المسكونة بالأرواح، وبالفحيح الليلي الذي يعقد له النصر الحاسم. ونقرأ على البطاقات الجديدة: واقعية سحرية، أدب خيالي، مداخلة شاعرية للثورة المحبطة، أدب أحلام، رؤية رمزية للأساطير المكسيكية العظيمة.

ويقال عنه بأنه متأثر بفوكنر، باميلي برونتي، وبـ «اورليا» لجيرار نيرفال. ورلفو لا يقول شيئاً. إنه يهرب من حفلات السمر والكوكتيل في مدينة مكسيكو ـ حيث الظهور ضرورة ملحة ـ ويمضي بوهيمياً وساهماً دون أن يهتم بأن كتابيه قد تُرجما إلى «كومة» من اللغات. يمضي الوقت وروفلو لا يكتب، وهو لم يسلّم إلى الناشر بعد مخطوط «سلسلة الجبال»، الرواية القادمة التي وعدَ بها. الصالون الأدبي ينتظر بلهفة. يفقد صبره. ولكن لا شيء.

يصبح كتّاب آخرون هم «الموضة»، وكذلك كتب أخرى. ويبقى رولفو محترماً ومحبوباً، ومحسوداً. لقد مُنح جوائز الوسط الأدبي المكسيكي، وبعد أن شغل عدة مناصب في جامعة مكسيكو الأهلية، أدار دار النشر «انستيتوتو ناثيونال انديخينيستا». ولكن «سلسلة الجبال» لم تظهر، وها قد مرت سنوات طويلة منذ صدور بيدرو بارامو.

«أكتب عندما تأتيني الهواية، فإذا لم تأت، لا أكتب... ولهذا السبب لم تنته (سلسلة الجبال)... محض هواية، وليس بسبب النجاح، أو الخوف، أو كل تلك الأشياء التي تقال...»، وشيئاً فشيئاً بدأت الأحكام حول أعماله تتغير وبدأ الحديث يدور عن قضية رولفو برؤية أبوية جزعة أو بضغينة صريحة. إنهم، في أعماقهم، يعاقبونه لأنه خرق الأصول المتبعة، لأنه مختلف عن المتوقع، فنادراً ما يسامح الصالون الأدبي كاتباً (أو مصارع ثيران) على مثل هذا الموقف المتحدي، وهم يطالبون رولفو بالكتاب التالي مثلما طُلب من مانوليتي (*) أن يتلقى طعنة الثور الثانية، عندما صرخوا به: أيها الخواف. لأنه كان بسيطاً وقليل الكلام، ولذا لم يكن صالحاً لارتداء بزة الأضواء. وهم يعنفون رولفو بوجل لابتعاده عن

(*) مانوليتي: (مانويل رودريغيث) مصارع ثيران اسباني عرف باسم مانوليتي. ولد في قرطبة (١٩١٧ ـ ١٩٤٧). خلق مصارعة ثيران جدية ونظيفة. مات بطعنة من قرن ثور في ميدان المصارعة في ليناريس.

الدوائر المثقفة ويعتبرونه بحكم المنتهي. بينما يتابع هو القول: «أكتب عندما تأتيني الهواية»، لا يعطي تفسيرات منطقية مع نعوت معلبة، يتحدث مثل أهل ريفه، مثل بطل باهت، ويصرخون في وجهه أن يقترب أكثر من الثور وكأن ذلك ممكن، وأن يفسح له المجال ليطعنه بقرنه من أجل وعد بأن يكون مرة أخرى معبود الحلقة والأصيل.

* * *

الطريق يصعد وينحدر، «يصعد أو يهبط حسب الذهاب أو الإياب. فهو صعود للذاهب، ونزول للقادم»

هذه العبارة الواردة في الفقرات الأولى من **بيدرو بارامو** تبدو مفصلة في هواء الانحدار: إنها العتبة بين عالمين. ففي الأعلى تبقى هضاب السهب الملتهب الكاوية، وفي الأسفل هناك بيدرو بارامو، والمطر، والهمس، والليل.

- **ماذا قلت لي عن اسم هذه القرية التي تبدو هناك في الأسفل** ـــ يسأل خوان بريثيادو.

- إنها **كومالا** يا سيدي ـ يجيبه أبونديو، البغّال، وحارس العتبة أيضاً. لأن كومالا عالم آخر: عالم الأموات. والخروج من كومالا ممكن فقط بالاتكاء على الحلم والذكرى بصورة مؤلمة.

هكذا تبدأ **بيدرو بارامو** تقريباً.

وإذا كان رولفو قد استخدم تقنيات حديثة في قصصه القصيرة، فإنه يستخدم في روايته وسائل أخرى متقدمة لينزل إلى طبقة مستقلة عن الزمن. إن الحكاية تبدو وكأنها تنساب في مقاطع جليدية تذوب بمجرد ملامستها، وعند قراءة الكلمة الأخيرة بعد ذلك والمطالبة بإجابة، تتخثر خارطة ضاربة إلى الزرقة في مكان ما، ويتبدى لنا، للحظة، نَفَس مُجْمَل يَشف ويختفي إلى أن نعود ونجده ـ كشبح مستحضر ـ في قراءة أخرى ونداء آخر.

بيدرو بارامو كتاب ليس من السهل الإمساك به، كتاب غزير لا ينضب معينه، إنه رحلة غير مألوفة يقاد إليها القارئ من يده عبر روح خوان بريثيادو الطيبة إلى أعماق البديهة، وليست جميع الرحلات إلى كومالا متشابهة دائماً، ولا تتكشف فيها الأركان ذاتها لجميع الزوار. لذلك فإنه من الصبيانية التزام تفسير واحد لبيدرو بارامو: شخصيات المأساة قد ماتت كلها، وهي تعيش في قبورها محكومة بقوانين أخرى، فلا يبقى أمامنا إلا الدنو بآذاننا من الحجارة والاستماع إلى همسها، إلى قصص حبها وحقدها، وإلى أحلامها.

إن رولفو، في **السهب الملتهب**، يحشر القارئ من رأسه في حياة أهل الريف المكسيكي القاحلة والقاسية. أما في بيدرو بارامو فإن التركيز ينقلب، ويأخذ أحدنا بالموت شيئاً فشيئاً مع خوان بريثيادو، ثم يغرق فجأة في الموت ويبدأ بالتطلع من أسفل، ويتوقف التفكير في تأمل أبدي حول الحياة المنتهية. هكذا يتحدث بيدرو بارامو: «**أفكر فيك يا سوزانا. بالربى الخضراء. عندما كنا نطيّر طيارات ورقية في موسم الرياح. ونسمع هناك في الأسفل همس القرية الحي بينما نحن فوقها، فوق الرابية، حينئذ يفلت منا خيط القنب مشدوداً مع الريح**». وتقول سوزانا: «**إنني هنا مستلقية، أفكر في ذلك الزمن لأنسى عزلتي. لأني لست مضطجعة لقضاء فترة قصيرة فقط. ولست على سرير أمي، وإنما في صندوق أسود مثل تلك التي تستخدم لدفن الموتى: لأني ميتة**». وكان رولفو قد فكر في البدء بعنوان آخر للرواية: «**الهمسات**».

قد تبدو الحكاية في هذه الرواية بسيطة إذا ما اقتصر تحليلها على حدود تناقض بيدرو بارامو ـ سوزانا سان خوان: حالة مألوفة جداً ــ رغم جماليتها ـ تدور حول الحب المستحيل والملعون. ولكن، حين أدخل رولفو شخصية خوان بريثيادو، الذي لا مناص للقارئ من مطابقته مع نفسه، أصبحت احتمالات الاهتمام لا نهائية، لأننا ننتقل معه من عالم إلى آخر، ونصل إلى حكاية خارقة ذات شاعرية كونية فخمة ومبهمة.

رواية بيدرو بارامو ليست مقسمة إلى فصول، فتقنية المقاطع التي اختارها رولفو تجعل الفصول أمراً لا لزوم له. وليس في الرواية أجزاء أيضاً، مع أن كثيرين يسعون لشق الكتاب إلى شقين اعتباراً من موت خوان بريثيادو، وكأن الموت (أو الحياة) يمكن قياسه في بيدرو بارامو بالسنتمتر، وليس فحيحاً يخرج طافياً من الأعماق. وكثيراً ما نلتقي أيضاً بآراء تبحث حول مغزى الرواية. مع أن سحر الرواية هو في عدم وجود أي مغزى واقعي لها: إنها الإنسانية كما تبدو من الجانب الآخر، من ذاكرة ضبابية وبعيدة عن نطاق المنطق، من افتراض لا يُفسر وإنما يتسرب إلى البديهة ويهزها.

ـ معك حق يا دوروتيو. أقلت أن اسمك دوروتيو؟ ـ يسأل خوان بريثيادو.

ـ لا فرق. مع أن اسمي دوروتيا. ولكن لا فرق.

ـ هذا صحيح يا دوروتيا، لقد قتلتني الأصوات الهامسة.

إن هذا العجز عن التواصل الحسي بين جثتي خوان ودوروتيا هو عجز مرعب. ورغم ذلك:

ـ كان من الأفضل لو أنك لم تخرج من أرضك. ما الذي جئت تفعله هنا؟ ـ قالت دوروتيا.

ـ لقد أخبرتك منذ البدء. أتيت بحثاً عن بيدرو بارامو، لأنه كان أبي على ما يبدو. لقد شدني الوهم.

ـ الوهم؟ هذا يكلف غالياً. فقد كلفني أن أعيش أكثر مما يجب. دفعت بهذا دين العثور على ابني الذي لم يكن إلا وهماً آخر، لأنه لم يكن لي أي ابن على الإطلاق. والآن، بعد أن مت، أصبح لدي متسع من الوقت لأفكر وأفهم كل شيء.

* * *

إن **السهب الملتهب** هو الواقع المُبدَع، و**بيدرو بارامو** هي الواقع الفاني الذي يعبر عنه رولفو بفوضى ظاهرية في الشكل وبلغة شاعرية ورمزية. وينساق القارئ منذ البداية مع مغامرة خوان بريثيادو، يفعل ذلك بحيرة تتحول شيئاً فشيئاً إلى هذيان، ثم، في منتصف الكتاب، وعندما يظن أنه بدأ يرى القاع، ينتبه إلى أن قصة خوان بريثيادو، الذي قد مات، ليست موجهة إلينا وإنما إلى دوروتيا، ويخرج فجأة إلى الليل فيما وراء الرمل والرواية ويتحول إلى سر عظيم لأنهم يفكرون في هذا الليل ويتكلمون بطريقة مختلفة عنا: «**أنت تعرف كيف يتحدثون بطريقة غريبة هناك في الأعلى**»، هذا ما تقوله دوروتيا أو دوروتيو، إذ لا فرق هناك عند الوصول إلى نهاية ما، مع أنه بالإمكان فهم كل شيء.

أثناء ذلك، وفي ليلة أخرى مفعمة بالبرد والمطر، كتب شاب مريض بالسل، اسمه فيدريك فون هاردينبرغ، ولقبه «نوفاليس»، كتب هذه الخاطرة الغامضة: «**كل ما هو مرئي يقبع فوق خلفية غير مرئية؛ وما هو مفهوم، فوق خلفية غير مفهومة؛ وما هو ملموس فوق خلفية غير ملموسة**». ودون الدخول في مقارنة بعيدة الاحتمال بين أعمال خوان رولفو وأعمال شاعر القرن الثامن عشر الألماني، فإننا نستطيع مع ذلك، وبسبب هذه اللقاءات على تخوم الرزنامات، أن ننطلق من نوفاليس للوصول إلى خوان رولفو، لنضيء هذا الأخير بنور عابر ومفاجئ.

إن حلقة الأرض ـ السماء تسقط على الإنسان مثل قفص، تسقط مرة واحدة دون أن يكون لها مخرج بيِّن، فالدين والتاريخ هما الكارثة نفسها، وليس ثمة أمل بالانتقال من جانب إلى آخر بالتسرب عبر الاستحضار والأحلام. ولكن هناك، في البعيد، يرتسم بريق خاطف، ربما هو باب، وربما هو مجرد مفتاح. إنه الشعر. وقد يكون الخلاص هناك.

بيدرو بارامو

جئتُ إلى «كومالا» لأنهم قالوا لي إن والدي يعيش هنا، إنه شخص يدعى بيدرو بارامو. أمي قالت لي ذلك. وقد وعدتها بأن أحضر لمقابلته عندما تموت. لقد ضغطتُ على يديها مؤكداً أني سأفعل، فقد كانت تحتضر، وكنت مستعداً لتقديم كل الوعود إليها. أوصتني قائلة: «لا تتخلف عن الذهاب لزيارته. اسمه كذا وكذا. وأنا متأكدة من أنه سيسر بمعرفتك». لم أستطع عندئذ عمل شيء آخر سوى القول لها إني سأفعل ذلك، ولكثرة ما رددت هذا الوعد فقد واصلت ترديده حتى بعد الجهد الذي تكلفته لأُفلت يديّ من بين يديها الميتتين.

قبل ذلك كانت قد قالت لي:

ـ لا تستعطهِ شيئاً. بل طالبه بحقنا... طالبه بما كان مجبراً على تقديمه لي ولم يعطني إياه أبداً... خذ منه غالياً ثمن النسيان الذي تركنا فيه يا بني.

ـ هذا ما سأفعله يا أماه.

ولكنني لم أفكر في تنفيذ وعدي حتى وقت قريب، عندما بدأت أمتلئ بالأحلام، وأطيّر الأوهام. وهكذا راح يتكون أمامي عالم متكامل حول الأمل الذي كان يمثله ذلك السيد المدعو بيدرو بارامو، زوج أمي. ولهذا السبب أتيتُ إلى كومالا.

* * *

كانت أيام طلوع الشِعْري(*)، حين يهب هواء آب كله ساخناً، ومسمماً برائحة العفونة المنبعثة من نبتات الصباني.

الطريق يصعد وينحدر، «*يصعد أو يهبط حسب الذهاب أو الإياب. فهو صعود للذاهب، ونزول للقادم*».

ـ ماذا قلت لي عن اسم هذه القرية التي تبدو هناك في الأسفل؟

ـ إنها كومالا يا سيدي.

ـ أأنت متأكد من أنها كومالا؟

ـ متأكد يا سيدي.

ـ ولماذا تبدو كئيبة هكذا؟

ـ إنه الزمن يا سيدي.

لقد كنت أتصور رؤية تلك المنطقة من خلال ذكريات أمي، من خلال حنينها، بين زفراتها المتقطعة. فقد عاشت دائماً وهي تتنهد شوقاً إلى كومالا وإلى العودة إليها، ولكنها لم ترجع أبداً، إنني آتٍ اليوم بدلاً منها. أحمل معي عينيها اللتين رأتْ بهما هذه الأشياء، لأنها منحتني عينيها لأري: «*هناك، وبعد أن تجتاز اختناق لوس كوليموتيس، يوجد أروع منظر لسهل أخضر، تخالطه بعض الصفرة التي تنشرها الذرة الناضجة. من هذا المكان تظهر كومالا للعيان، ملونة الأرض بالبياض وباعثة فيها الضوء في الليل*». وكان صوتها سرّياً، ومنطفئاً تقريباً، وكأنها تكلم نفسها... أمي.

وسمعت من يسألني:

ـ ولماذا أنت ذاهب إلى كومالا، إذا كان لي أن أعرف؟

أجبته:

(*) الشعري: اسم الكوكب الذي يطلع في الجوزاء، ويكون طلوعه في شدة الحر.

ـ إني ذاهب لرؤية والدي.

فقال هو:

ـ آه!

ورجعنا إلى الصمت.

كنا نسير نزولاً، ونحن نسمع وقع حوافر الحمير. عيوننا جاحظة بسبب سطوة النعاس في قيظ آب.

وعدت أسمع من جديد صوت الشخص الذي يسير بجانبي:

ـ سيقيم لك حفلة بديعة. وسيفرح لرؤية أحدٍ بعد هذه السنوات الطويلة التي لم يأت خلالها أحدٌ إلى هنا.

ثم أضاف قائلاً:

ـ لتكن من تكون، فإنه سيسعد برؤيتك.

وتحت الشمس المتلألئة، كان السهل يبدو مثل بحيرة شفافة، تشوشها الأبخرة حيث يلمع الأفق الرمادي. ووراءه، يوجد خط من الجبال. وفيما وراء الجبال توجد الأبعاد النائية.

ـ وما هو شكل أبيك، إذا كان لي أن أعرف؟

قلت له:

ـ لا أعرفه. ما أعرفه فقط هو أن اسمه بيدرو بارامو.

ـ آه! هكذا!

ـ أجل، لقد قالوا لي أن هذا هو اسمه.

وسمعت مرة أخرى لفظة «آه!» يطلقها البغّال.

لقد التقيت به في لوس انكوينتروس، حيث تتقاطع عدة دروب. وكنت قد وقفت هناك منتظراً، إلى أن ظهر أخيراً هذا الرجل. فسألته:

ـ إلى أين أنت ذاهب؟

ـ إني ذاهب إلى تحت يا سيدي.

ـ أتعرف مكاناً يسمى كومالا؟

ـ أنا ذاهب إليه.

وتبعته. مضيت وراءه محاولاً مجاراة خطواته حتى انتبه، على ما يبدو، إلى أني أتبعه، فخفف من سرعته. ثم سرنا متلاصقين يكاد كتف أحدنا أن يلامس كتف الآخر.

قال لي:

ـ أنا أيضاً ابن بيدرو بارامو.

ومر سرب من الغربان قاطعاً السماء الخاوية وهو يطلق صرخة «كواك.. كواك.. كواك».

بعد أن خلّفنا المرتفعات وراءنا، أخذنا ننحدر أكثر فأكثر. لقد تركنا الهواء الساخن هناك في الأعلى ورحنا نغرق في الحر الخالص الذي لا هواء فيه. كل شيء كان يبدو وكأنه في انتظار أمر ما.

قلت:

ـ الحر شديد هنا.

فأجابني الآخر:

ـ أجل، وهذا ليس شيئاً يذكر. انتظر، ولسوف تشعر به أشد بكثير عندما نصل إلى كومالا. إن تلك القرية تقبع فوق جمار الأرض، في فم الجحيم تماماً. وأقول لك إن كثيرين ممن يموتون هناك، يعودون بمجرد وصولهم إلى الجحيم بحثاً عن لحافهم.

سألته:

ـ أتعرف بيدرو بارامو؟

لقد تجرأت على ذلك لأني رأيت في عينيه قطرة ثقة. وعدت أسأل:

ـ من يكون؟

فأجابني:

ـ ضغينة متوقدة.

وهش الحمير بحزمة من القش، دون أية حاجة لذلك. فالحمير كانت تتقدمنا كثيراً، مدفوعة بسرعة في المنحدر.

أحسست بصورة أمي المحفوظة في جيب قميصي تدفئ قلبي، وكأنها هي الأخرى تتعرق. إنها صورة قديمة، متآكلة الحواف، ولكنها الصورة الوحيدة التي عرفتها لها. كنت قد عثرت عليها في خزانة المطبخ، في قِدرٍ مملوء بالأعشاب: أوراق حبق، أزهار قشتالية، أغصان من نبات السَّذاب. ومنذ ذلك الحين احتفظتُ بها. كانت الصورة الوحيدة. فوالدتي كانت دائماً عدوة لالتقاط الصور. وكانت تقول إن الصور أمر من أمور السحر، ويبدو أنها كذلك فعلاً، لأن صورتها كانت مليئة بثقوب صغيرة كثقوب الإبرة، وعلى مستوى القلب كان يوجد ثقب كبير جداً يتسع لإدخال الإصبع الوسطى.

إنها الصورة نفسها التي أحملها معي الآن، معتقداً أنها ستعطي نتيجة طيبة في جعل والدي يتعرف عليّ.

قال البغّال وهو يتوقف:

ـ انظر، أترى تلك الرابية التي تبدو مثل مثانة خنزير؟ وراءها تماماً توجد ميديا لونا. التفِتْ الآن إلى هناك. أترى حافة ذلك المرتفع، أمعن النظر. وتطلع الآن إلى هذا الاتجاه الآخر. أترى تلك الحافة الأخرى التي لا تكاد تظهر لشدة بعدها؟ حسن، هذه هي ميديا لونا من أقصاها إلى أقصاها. إنها كمن يقول: كل الأرض التي بإمكان البصر الإحاطة بها. وكل هذه الأرض هي ملك له. والمسألة أن أمهاتنا ولدننا بسوء طالع في سرير عابر، مع أننا أولاد بيدرو بارامو. والسخرية الكبرى هي أنه حملنا للتعميد. ولا بد أن الأمر نفسه حصل معك، أليس كذلك؟

ـ لست أذكر.

ـ لتذهب إلى الجحيم!

ـ ما الذي تقوله؟

ـ إننا نكاد نصل يا سيدي.

ـ أجل، أرى ذلك. ما هذا الذي هناك؟

ـ إنه كوريكامينوس يا سيدي. هكذا يسمون هذا النوع من الطيور.

ـ لا، أنا أسأل عما حدث للقرية، فهي تبدو متوحدة، وكأنها مهجورة. يبدو أن لا أحد يقطنها.

ـ ليست تبدو فقط. إنها كذلك فعلاً. لا أحد يحيا هنا.

ـ وبيدرو بارامو؟

ـ لقد مات بيدرو بارامو منذ سنوات عديدة.

* * *

لقد كان ذلك الوقت هو الذي يلعب فيه الأطفال في شوارع جميع القرى، مالئين الأصيل بصرخاتهم. عندما كانت الجدران السوداء ما تزال تعكس ضوء الشمس الأصفر.

هذا ما رأيته على الأقل في سايولا، يوم أمس بالذات، في مثل هذه الساعة. كنت قد رأيت أيضاً طيران الحمائم وهي تشق الفضاء الساكن، وتخفق بأجنحتها وكأنها تنتزع نفسها من النهار. كانت تطير وتحط على السطوح، بينما صرخات الأطفال تتعالى وتبدو كأنها تصطبغ بالأزرق في سماء الأصيل.

أنا هنا الآن، في هذه القرية المنطفئة. أسمع وقع أقدامي على الأحجار المستديرة التي رُصفت بها الشوارع، وتردد خطواتي الجوفاء صوتها في الجدران المطلية بالكلس التي فقدت بريق الضوء تقريباً.

تابعتُ المسير في الشارع الرئيسي المقفر. نظرت إلى البيوت الخاوية والأبواب المشققة التي غزتها الأعشاب. كيف قال لي ذلك الشخص عن اسم هذه العشبة؟ «الحاكمة يا سيدي. إنها وباء، لا تنتظر إلا أن يذهب الناس حتى تهاجم البيوت. وهكذا ستراها».

عند مروري في أحد الشوارع الجانبية رأيت سيدة مبرقعة بحجاب وكأنها لم تكن. بعد ذلك عاودتْ خطواتي التحرك وتابعتْ عيناي التطلع إلى ثقوب الأبواب، إلى أن عادت المرأة ذات الحجاب لتعبر من أمامي مرة أخرى.

ـ مساء الخير!

لاحقتها بنظري. وسألتها:

ـ أين تسكن دونيا أدوفيخيس؟

فأشارت بإصبعها:

ـ هناك. في البيت الذي بجانب الجسر.

لاحظتُ أن صوتها يخرج من حبال صوتية إنسانية، وأن في فمها أسناناً ولساناً ينعقد وينحلّ عند الكلام. وكانت عيناها مثل عيون جميع الناس الذين يعيشون على الأرض.

كان الظلام حينئذ قد حلّ.

عاودت طرح تحية المساء عليها. وبالرغم من أنه لم يكن ثمة أطفال يلعبون، ولا حمائم، ولا أسطح زرقاء، فقد أحسست بأن القرية تحيا. وإذا كنت لا أسمع إلا الصمت فقط، فلأنني لم أعتد على الصمت بعد، ربما لأن رأسي مازال يعج بالضجيج والأصوات.

بالأصوات، أجل. وهنا، حيث الهواء قليل، يكون السمع أفضل. فالأصوات تبقى في داخل المرء ثقيلة. تذكرت ما قالته لي أمي «*هناك ستسمعني بصورة أفضل. وسأكون قريبة منك أكثر. ستجد صوت ذكرياتي أقرب إليك من صوت موتي، هذا إذا كان للموت صوت في يوم ما*». أمي... الحية.

رغبت في القول لها: «لقد أخطأتِ العنوان. أعطيتني عنواناً غير صحيح. بعثتِ بي إلى، أين هذا وأين ذاك؟، إلى قرية معزولة، لأبحث عن امرئ لا وجود له».

وصلت إلى بيت الجسر مستعيناً في توجهي بصخاب النهر. طرقت الباب، ولكن في الفراغ. فقد اهتزت يدي في الهواء، وكأن الهواء قد فتح الباب. كانت هناك امرأة، قالت لي:

ـ تفضل.

فدخلت.

* * *

لقد بقيت في كومالا. والبغّال الذي واصل طريقه غرباً، أخبرني قبل أن يودعني:

ـ أنا سأتابع قدماً، حيث تبدو عقدة التلال. هناك بيتي، وإذا أردت المجيء فأهلاً وسهلاً. أما إذا أردت البقاء هنا، فقد وصلت؛ مع أنك لن تبقى سوى ما يستغرقه إلقاء نظرة على القرية؛ ربما تلتقي بجار ما يزال حياً.

وبقيت. فلهذا السبب أتيت.

ـ أين أستطيع العثور على مكان أنام فيه؟ ـ سألته صارخاً تقريباً.

ـ ابحث عن دونيا أدوفيخيس، هذا إذا كانت ما تزال على قيد الحياة. وقل لها إنك قادم من طرفي.

ـ وما هو اسمك؟

فأجابني:

ـ أبونديو...

ولكنني لم أتمكن من سماع الكنية.

* * *

ـ أنا أدوفيخيس ديادا. تفضل من هنا.

بدت وكأنها كانت تنتظرني. فقد أعدّت كل شيء، حسبما قالت لي وهي تدعوني لأتبعها عبر مجموعة طويلة من الحجرات المظلمة والمخربة على ما يبدو. ولكنها لم تكن كذلك، فعندما اعتدت على العتمة وعلى خيط الضوء النحيل الذي يتبعنا، رأيت ظلالاً تنمو على كلا الجانبين وأحسست بأننا نسير عبر ممر ضَيِّق مفتوح ما بين حزم أمتعة مربوطة.

سألتُ:

ـ ما هذا الذي هنا؟

فقالت لي:

ـ أمتعة. كل بيتي مملوء بحزم الأمتعة. فقد اختاره الذين ذهبوا ليحفظوا فيه أثاثهم، ولم يعد أحد منهم لأخذ متاعه. ولكن الغرفة التي حجزتها لك موجودة في النهاية. وأنا أحتفظ بها مرتبة دائماً لتكون جاهزة إذا ما جاء أحد... أنتَ ابنها إذن؟

وأجبتها:

ـ ابن من؟

ـ ابن دولوريتاس.

ـ نعم، ولكن كيف عرفتِ؟

ـ هي أخبرتني بأنك ستأتي. أخبرتني بذلك اليوم بالضبط. وبأنك ستصل اليوم.

ـ مَنْ؟ أمي؟

ـ أجل، هي.

لم أعرف فيمَ أفكر. ولم تقل لي هي فيمَ أفكر.

ـ ها هي غرفتك. ـ قالت لي.

لم يكن للغرفة أبواب سوى ذاك الذي دخلنا منه. أشعلت الشمعة ورأيتُ الغرفة فارغة.

قلت لها:

ـ لا يوجد شيء أنام عليه هنا.

ـ لا تقلق. فلا بد أنك أتيت متعباً، والنعاس فراش جيد للتعب. غداً سأعدّ سريرك. فلا يمكن، كما تعلم، ترتيب الأثاث بضربة عصا. إن ذلك يتطلب استعداداً، وأمك لم تخبرني إلا هذه الساعة.

قلت:

ـ أمي، أمي توفيت.

ـ هذا هو إذن السبب في أن صوتها كان ضعيفاً جداً، كأنه قد اجتاز مسافات طويلة ليصل إلى هنا. الآن فهمت. ومنذ متى توفيت؟

ـ منذ سبعة أيام.

ـ يا للمسكينة. لا بد أنها شعرت بأنها مهجورة. لقد تعاهدنا على أن نموت معاً. أن نذهب نحن الاثنتين في الرحلة الأخرى معاً لتشجع إحدانا الأخرى، إذا ما تطلب الأمر، ولربما واجهتنا صعوبة ما. لقد كنا صديقتين حميمتين. ألم تحدثك عني أبداً؟

ـ لا، مطلقاً.

ـ إن هذا يبدو لي غريباً. طبعاً، في ذلك الحين كنا مجرد صبيتين. وكانت هي قد تزوجت للتو. ولكننا كنا متحابتين جداً. وكانت أمك شديدة الجمال، شديدة... لنقل، شديدة الرقة، مما يثير الرغبة في حبها. يبعث الشهية في حبها. لقد سبقتني إذن، أليس كذلك؟ ولكن، تأكد من أنني

سألحق بها. أنا أفهم فقط كم هي السماء بعيدة عنا، ولكنني أعرف كيف أختصر السُبل. كل شيء يتلخص، والله هو الوكيل، في الموت عندما يشاء المرء وليس عندما يفرض هو علينا ذلك. أو، إن أردت، إجباره على المجيء قبل الميعاد. أعذرني إذا كنت أتحدث معك دون تكلف؛ فأنا أفعل ذلك لأني أعتبرك مثل ابني. أجل، فكثيراً ما قلتُ: «ابن دولورس كان يجب أن يكون ابني». وسأخبرك فيما بعد بالسبب. أما الشيء الوحيد الذي أريد أن أقوله لك الآن هو أنني سألحق بأمك في أحد دروب الأبدية.

ظننت أن تلك المرأة مخبولة. ثم لم أعد أظن شيئاً. أحسست أنني في عالم غريب وأسلمت نفسي للانقياد. جسدي، الذي بدا وكأنه يضعف، صار يتلوى أمام أي شيء، فقد أفلتتْ أحزمته وصار يمكن لأيٍ كان أن يلعب به وكأنه خرقة.

قلت لها:

ـ إنني متعب.

ـ تعال أولاً لتتناول لقمة ما. شيء من الموجود. أي شيء.

ـ سأجيء. سأجيء فيما بعد.

* * *

الماء الذي كان يقطر من قرميد السقف أحدث ثقباً في الرمل. كان يُصدر صوتاً: بلاس، بلاس، ثم بلاس مرة أخرى، في منتصف ورقة غار تدور وتثب وهي محشورة في الشق بين حجرين. كانت العاصفة قد انقضت. ويهز النسيم الآن أغصان شجرة الرمان بين حين وآخر ويجعلها تقطر مطراً كثيفاً، يطبع الأرض بقطرات براقة لا تلبث أن تنطفئ. والدجاجات المنكمشة على نفسها وكأنها نائمة، تنفض أجنحتها فجأة وتخرج إلى الفناء وهي تنقر بسرعة، ملتقطة الديدان التي أظهرها المطر. وحين تخرج الشمس

من بين الغيوم، تشع ضوءاً على الأحجار، وتلـون كـل شـيء بـألوان قـوس قزح، وتشرب مياه الأرض، وتلعب مع الهواء مانحـة بريقـاً لـلأوراق الـتي يلعب بها الهواء.

ـ ما الذي تفعله كل هذا الوقت في المرحاض أيها الصبي؟

ـ لا شيء يا أماه.

ـ إذا ما بقيت في الداخل ستخرج أفعى وتلدغك.

ـ حاضر يا أماه.

«كنت أفكر فيكِ يا سوزانا. بالربى الخضراء. عندما كنا نطـيّر طيـارات ورقية في موسم الرياح. ونسمع همس القرية النابض بالحياة هناك في الأسفل بينما نحن فوقها، فوق الرابية، حينئذ يفلت منا خيط القنـب مشـدوداً مـع الريح. «ساعديني يا سوزانا». وتضغـط يـدان ناعمتـان علـى يدينـا. «أفلـت مزيداً من الخيط».

»الهواء يجعلنا نضحك، يوحد نظرة عيوننا، بينما الخيط ينسل من بين الأصابع وراء الريح، إلى أن ينقطع بصرير خفيف وكأنـه قُطـع بضربـة مـن جناحي عصفور. وهناك في الأعلى، يهوي العصفـور الورقـي مدومـاً سـاحباً وراءه ذيله الذي من نُسالة خيوط، ليضيع في خضرة الأرض.

»كانت شفتاكِ مبللتين وكأن الطلّ قد قبّلهما».

ـ لقد قلت لك أن تخرج من المرحاض أيها الصبي.

ـ حاضر يا أماه، ها أنذا خارج.

«أتذكـرك أنـتِ. عندمـا كنـتِ تنظريـن إلي بعينيـك اللتـين بلـون الميـاه البحرية».

رفع بصره ورأى أمه في الباب.

ـ لماذا تتأخر طويلاً في الخروج؟ ما الذي تفعله هنا؟

ـ إنني أفكر.

ـ ألا يمكنك عمل ذلك في مكان آخر؟ إن البقاء طويلاً في المرحاض مـؤذ. وفوق هذا، عليك أن تفعل شيئاً ما. لماذا لا تذهب مع جدتك لفرط الذرة؟

ـ ها أنا ذاهب يا أماه. ها أنا ذاهب.

* * *

ـ جدتي، إنني آتٍ لمساعدتك في فرط الذرة.

ـ لقد انتهينا، ولكننا سنصنع شوكولاته. أيـن كنـت أنـت؟ لقـد بحثنـا عنك طول الوقت الذي دامته العاصفة.

ـ كنتُ في الفناء الآخر.

ـ وما الذي كنت تفعله؟ أكنت تصلي؟

ـ لا يا جدتي، كنت أتفرج على هطول المطر فقط.

تأملته الجـدة بعينيهـا نصـف الرمـاديتين، نصـف الصفراويـن، اللتـين تبدوان وكأنهما تحزران ما الذي في داخل المرء.

ـ اذهب إذن ونظف الطاحونة.

«على بعد مئات الأمتار، فوق جميع الغيوم، أعلى، أعلى بكثير من كل شيء، تختبئين أنت يا سوزانا، تختبئين في رحابة الله، فيما وراء تدابـيره الإلهيـة، حيـث لا أستطيع الوصول إليك أو رؤيتـك، وحيـث لا تصـــل كلماتي». .

ـ الطاحونة لا تنفع يا جدتي، فمحورها مكسور.

ـ لا بد أن ميكائيلا هذه قد طحنت فيها أحجـاراً. لا سـبيل لتخليصهـا من هذه العادة السيئة، ولكن ما الفائدة، ليس ثمة علاج.

ـ لماذا لا نشتري طاحونة أخرى؟ فهذه قديمة جداً، حتى أنهـا لم تعـد تنفع.

ـ أحسنت القول. ومع أنه لم يبق لدينا سنتافو واحد بعد المصاريف التي أنفقناها لدفن جدك والأعشار التي دفعناها للكنيسة، فإننا سنضحي ونشتري واحدة أخرى. لا بأس في أن تذهب إلى دونيا إنيس بيّالاباندو وتطلب منها أن تعطينا إياها بالدين حتى تشرين الأول. سندفع ثمنها من المحصول.

ـ حاضر يا جدتي.

ـ ولتقم بالمهمة كاملة، قل لها في طريقك أن تقرضنا منخلاً ومِشْذباً، فلكثرة ما نمت الأعشاب صارت تندس لنا في أضيق الأماكن. لو أنني مازلت أملك بيتي الكبير، وتلك الزرائب الواسعة التي كانت فيه، لما كنت أتذمر. ولكنّ جدك أصر على المجيء إلى هنا. كل شيء من اللّه، ولن تسير الأمور أبداً مثلما يشاء أحدنا. قل لدونيا إنيس أننا سندفع لها كل ديوننا من المحصول.

ـ حاضر يا جدتي.

كانت هناك راشفات رحيق الزهور، فقد كان موسمها. وكان يُسمع أزيز أجنحتها بين أزهار الياسمين التي كانت تميل من ثقل أزهارها.

جال بيده فوق رفّ تمثال القلب المقدس فوجد أربعة وعشرين سنتافو. ترك الأربعة وتناول قطعة العشرين سنتافو.

وقبل أن يخرج استوقفته أمه:

ـ إلى أين أنت ذاهب؟

ـ إلى دونيا إنيس بيّالاباندو من أجل طاحونة جديدة. لقد انكسرت التي عندنا.

ـ قل لها أن تعطيك متراً من التفتا السوداء، مثل هذه ـ وأعطته العينة ـ: ولتضفها إلى حسابنا.

ـ حسن جداً يا أماه.

ـ واشتر لي في طريق عودتك بضع حبات أسبرين. في أصيص الممـر تجـد نقوداً.

وجد بيزو واحداً. ترك العشرين سنتافو وأخذ البيزو. وفكر:

«صار لدي الآن ما يكفي من النقود لشراء ما يُعرض».

ـ بيدروا بيدروا ـ نادوه.

ولكنه لم يسمع. كان يمضي بعيداً.

* * *

عادت تمطر من جديد في الليل. بقي يستمع إلى فوران الماء وقتاً طويـلاً، ولا بد أنه نام بعد ذلك، لأنه عندمـا استيقظ لم يكـن يُسـمع إلا وقـع رذاذ صامت. كان زجاج النافذة مغبشاً، وكانت قطرات المطر تـنزلق في الجهـة الأخـرى في خيـوط ثخينـة مثـل الدمـوع. «أتـأمل سـقوط القطـرات المضـاءة بالبروق، وكلما تنفستُ أتنهد، وكلما فكرتُ أفكر فيك يا سوزانا.»

تحول المطر إلى نسيم. وسمِعَ: «مغفرة الذنوب وبعـث الجسـد، آمـين». كان هذا هنا في الداخل، حيـث كـانت بعـض النسـوة يصلـين آخـر صـلاة السُبْحة. كن ينهضن؛ ويحبسن الطيور؛ ويغلقن الباب؛ ويطفئن النور.

لم يبق سوى ضوء الليل وحده، وفحيح المطر كأنه همس الزيزان...

ـ لماذا لم تذهب لتصلي صلاة السبحة؟ إننا في اليوم التاسع لوفاة جدك.

كانت أمه هناك بجـانب البـاب، تحمـل شمعـة في يدهـا. وكـان ظلهـا المنطلق نحو السقف طويلاً ومنحنياً. وكانت عوارض السقف تعيده أجـزاء، مفتتاً.

قال:

ـ أشعر بالحزن.

دارت حينئذ حول نفسها. أطفأت لهب الشمعة. أغلقت الباب وفتحت نحيبها الذي بقي مسموعاً ومختلطاً مع المطر.

كانت ساعة الكنيسة تدق محددة الساعات، ساعة في إثر أخرى، ساعة في إثر أخرى، كما لو أن الوقت قد تقلص.

* * *

ـ أجل، كنتُ على وشك أن أكون أماً لك. ألم تخبرك هي أي شئ عن هذا أبداً؟

ـ لا. لقد كانت تحكي لي أموراً طيبة فقط. ولم أعرف اسمك إلا من البَغّال الذي أحضرني إلى هنا، إنه شخص يدعى أبونديو.

ـ يا لأبونديو الطيب. إنه مازال يذكرني إذن؟ كنت أمنحه إكرامية عن كل مسافر يأتي به إلى بيتي. وكانت الأمور تسير على ما يرام لكلينا. أما الآن، فقد تغيرت الأزمان بصورة بائسة، فمنذ حلّ الفقر هنا لم يعد يتصل بنا أحد. هو الذي نصحك إذن بالمجيء لرؤيتي؟

ـ طلب مني أن أبحث عنك.

ـ لا أستطيع إلا أن أشكره. لقد كان رجلاً طيباً ومخلصاً. فهو الذي كان يحمل إلينا البريد، وواصل القيام بهذا العمل حتى بعد أن أصيب بالصمم. إنني أذكر اليوم التعيس الذي وقعت فيه مصيبته. لقد تأثرنا جميعنا، لأننا كنا نحبه. كان يحمل الرسائل ويحضرها إلينا. وكان يحكي لنا كيف تجري الأمور هناك، في الجانب الآخر من العالم، وكان يروي لهم هناك بالتأكيد، كيف تجري أمورنا. لقد كان محدثاً عظيماً. ولكنه لم يعد كذلك فيما بعد. لم يعد يتحدث. وكان يقول أنه لا يجد معنى للتحدث في أمور لا يسمعها، أمور ليس لها أي مدلول بالنسبة إليه، ولا يجد لها أي طعم. وكل شيء حدث عندما انفجرت قريباً جداً من رأسه مفرقعة من تلك التي

نستخدمها هنا لإخافة حيات الماء. منذ ذلك الحين ألزم نفسه الصمت، مع أنه لم يكن أبكم، ولكن طيبته لم تنته مع ذلك.

ـ هذا الذي أحدثك عنه يسمع جيداً.

ـ لا بد أنه ليس الشخص نفسه. ثم إن أبونديو قد مات.. لا بد أنه قد مات بالتأكيد. هل تلاحظ؟ لا يمكن إذن أن يكون هو نفسه.

ـ صحيح.

ـ حسن، فلنرجع إذن إلى أمك. كنتُ أقول لك...

أخذت أتأمل تلك المرأة الواقفة أمامي، دون أن أتوقف عن سماعها. وفكرت في أنها قد أمضت سنوات قاسية دون ريب. كان وجهها شفافاً كما لو أنه خال من الدماء، وكانت يداها ذاويتين، ذاويتين ومليئتين بالتجاعيد. ولَم تكن عيناها مرئيتين. كانت ترتدي ثوباً أبيض عتيقاً جداً، محملاً بزينة مفرطة، وكانت تعلق في عنقها صورة مريم المقدسة عذراء الإغاثة ومعها كتابة تقول: «مغيثة الخاطئين».

ـ ... هذا الشخص الذي أحدثك عنه كان يعمل «مروضاً» في ميديا لونا، كان يقول إن اسمه هو أنوثينثيو اوسوريو. مع أننا جميعنا كنا نعرفه بالاسم السيئ «النطاط» لأنه كان خفيفاً ورشيقاً في القفز. عرّابي بيدرو كان يقول عنه إنه بُعث ليكون مروض مهور، ولكن كانت لديه في الحقيقة مهنة أخرى: مهنة «المُهيِّج». فقد كان مُهيجاً للأحلام. هذا هو ما كانه في الحقيقة. وقد شبك أمك مثلما فعل بكثيرات. أنا إحداهن. ففي إحدى المرات أحسست بالمرض، فحضر وقال لي: «لقد أتيت لأجسك كي تستريحي». وكل ذلك كان يتلخص في أن يبدأ بلمس إحدانا، في أطراف أصابعها أولاً، ثم يأخذ بتدليك اليدين، وبعدها الذراعين، وينتهي ليندس بين ساقيها، ببرود، ولكن ذلك لا يلبث أن يثير الدفء بعد هنيهة. وبينما هو يناور، يحدثك عن مستقبلك. ثم يروح في غيبوبة، وتتعكر عيناه وهو يتوسل ويلعن، مالئك بالبصاق مثلما يفعل الغجر. ويتعرى تماماً في بعض

الأحيان لأن هذه، كما كان يقول، هي رغبتنا. وأحياناً كـان يصيـب. فهـو يقرص في أماكن كثيرة ولا بد أن يوفق في أحدها.

«والقضية أن المدعو أوسوريو قد تكهـن لأمـك، عندمـا ذهبـتْ لمقابلتـه، بأنه عليها ألا تضاجع أي رجل هذه الليلة لأن القمر هائج.

«وأتت دولوريس وقد سيطر عليهـا الحـرج والضيـق لتقـول لي أنهـا لا تستطيع. وأنها ببساطة تشعر بأنــه مـن المسـتحيل عليهـا مضاجعـة بيـدرو بارامو هذه الليلة. وكانت تلك هي ليلـة زفافهـا. وهنـاك كنـت أنـا أحـاول إقناعها بألا تصدق أوسوريو، وأنه من جهة أخرى مجرد محتال دجال.

«قالت لي:

« ـ لا أستطيع. اذهبي أنت مكاني. ولن يلاحظ ذلك.

«وكنت أنا بالطبع أصغر منها سناً بكثير. وأقل سمرة بقليل، ولكن هـذا لا يُلاحظ في الظلام.

« ـ هذا غير ممكن يا دولوريس، يجب أن تذهبي أنت.

« ـ قدمي لي هذا الجميل. وسأكافئك عليه في أمور أخرى.

«كانت أمك في ذلك الحين صبية ذات عينين وديعتـين. إذا كـان لأمـك شيء جميل، فهو عيناها. وكانتا قادرتين على الإقناع.

« ـ اذهبي أنت مكاني ـ هكذا قالت لي.

«وذهبتُ.

«استفدت من الظلمة ومن أمر آخر لم تكن هي تعلم به: فقـد كنـت أنـا أيضاً مغرمة ببيدرو بارامو.

«لقد ضاجعته برغبة، وبشهية. استحكمتُ إلى جسده، ولكن مرح اليـوم السابق كان قد أنهكه، ولذا أمضى الليل وهو يشخر. وكل ما فعلـه كـان أن وضع ساقيه بين ساقيّ.

«وقبل بزوغ الفجر نهضتُ ومضيت بحثاً عن دولوريس. وقلت لها:

» ـ اذهبي أنت الآن. فهذا يوم آخر.

» ـ ماذا فعل لك؟ ـ سألتني.

»وأجبتها:

» ـ لست أدري بعد.

»وفي العام التالي ولدتَ أنت، إنما ليس مني، مع أنه لم يكن هناك سوى قدر شعرة حتى يصبح الأمر كذلك.

»ربما لم تحدثك أمك بهذه القصة خجلاً.»

«... سهول خضراء، ترى الأفق يرتفع وينخفض مع الريح التي تحرك السنابل، وتموج المساء مع المطر في تموجات ثلاثية. لون الأرض، رائحة البقل والخبز. قرية لها رائحة عسل مراق...»

«لقد كَرِهَتْ بيدرو بارامو دوماً. «دولوريتاس! هل أمرتِ بأن يعدّوا لي الفطور؟» وتنهض أمك قبل الفجر. تشعل الموقد، فتستيقظ القطط على رائحة النار. وتمضي هي هنا وهناك، تتبعها دورية القطط. «دونيا دولوريتاس!».

»كم من المرات سمعتْ أمك هذا النداء؟ «دونيا دولوريتاس، هذا بارد. هذا لا ينفع». كم من المرات؟ ومع أنها كانت معتادة على الأسوأ، فإن عينيها الوديعتين قد تصلبتا».

«...لا تحس هناك بطعم آخر سوى طعم أزهار البرتقال في فتور الجو.»

»عندئذ صارت تتنهد.

» ـ لماذا تتنهدين يا دولورتاس؟

»لقد رافقتهما في ذلك المساء. كنا وسط الحقل ننظر إلى مرور أسراب الزرازير. وكان ثمة طير جارح يتأرجح في السماء».

» ـ لماذا تتنهدين يا دولوريتاس؟

« ـ أتمنى لو أصير زرزوراً لأطير إلى حيث تعيش أختي.

« ـ كل شيء إلا هذا يا دونيا دولوريتاس. الآن حالاً ستذهبين لرؤية أختك. فلنرجع. وليعدّوا لك حقائبك. كله إلا هذا.

«وذهبتْ أمكَ:

« ـ إلى اللقاء يا دون بيدرو.

«وداعاً يا دولوريتاس!

«ذهبتْ من ميديا لونا إلى الأبد. وسألتُ بيدرو بارامو عنها بعد مضي عدة شهور.

« ـ كانت تحب أختها أكثر من حبها لي. لا بد أنها مرتاحة هناك. وفوق هذا، لقد أغضبتني. وأنا لا أفكر في السؤال عنها، إذا كان هذا هو ما يهمك.

« ـ وممَ سيعيشان؟

« ـ فليساعدهما الله».

«... خذ منه غالياً ثمن الهجران الذي تركنا فيه يا بني.»

ـ وهكذا لم نعد نعرف شيئاً عنها، إلى أن أخبرتني هي نفسها بأنك ستأتي لرؤيتي.

قلت لها:

ـ أما ما جرى لنا بعد ذلك. فقد عشنا في كوليما متكئين على الخالة خيرترودیس التي كانت تواجهنا بأعبائنا في وجهنا. «لماذا لا ترجعين إلى زوجك؟»، هكذا كانت تقول لأمي.

« ـ وهل بعث هو بطلبي؟ لن أذهب إذا لم يطلبني. لقد أتيت لأني اشتقت إليكِ. لأني أحبكِ جئتُ إلى هنا.

« ـ أفهم هذا. ولكن حان الوقت لأن تذهبي.

« ـ هذا إذا كان يريدني.

ـ ما الذي يحدث يا دونيا أدوفيخيس؟

هزت رأسها وكأنها تستيقظ من حلم.

ـ إنه حصان ميغيل بارامو يعدو في طريق ميديا لونا.

ـ هناك من يعيش في ميديا لونا إذن؟

ـ لا، لا أحد يحيا هناك.

ـ إذن؟

ـ إنه الحصان يمضي ويعود فقط. لقد كانا لا يفترقان. وهو يعدو في كل الاتجاهات بحثاً عنه ويرجع دائماً في مثل هذا الوقت. ربما أن المسكين لا يتحمل تبكيت نفسه. فحتى الحيوانات تدرك ذلك عندما تقترف جريمة، أليس كذلك؟

ـ لست أفهم. فأنا لم أسمع جلبة أي جواد.

ـ لا؟

ـ لا.

ـ لا بد أنه أمر من أمور حاستي السادسة إذن. هبةٌ منحني إياها اللّه، أو ربما هي لعنة. فأنا وحدي أعلم كم عانيت بسبب هذا.

اعتصمتْ بالصمت لحظة ثم أضافت:

ـ كل شيء بدأ مع ميغيل بارامو. فأنا فقط من عرف بما جرى له في الليلة التي مات فيها. كنت قد رقدت عندما سمعت حصانه يعود باتجاه ميديا لونا. وقد استغربت، لأنه لا يعود أبداً في مثل ذلك الوقت. إنه يفعل ذلك دائماً عندما يكون الفجر قد تقدم. كان يذهب ليتسامر مع خطيبته في قرية تدعى كونتلا، وهي بعيدة بعض الشيء من هنا. كان يخرج باكراً ويتأخر في العودة. لكنه في تلك الليلة لم يعد... أتسمعه الآن؟ إنه يُسمع بوضوح، يأتي عائداً.

ـ لا أسمع شيئاً.

ظننت أن تلك المرأة كانت تسمعني؛ لكنها كانت تميل برأسها وكأنها تنصت إلى همس ناء. ثم قالت:

ـ متى ستستريح؟

* * *

«يوم ذهبتِ أدركتُ أنني لن أراك بعدها. كنتِ يومئذ مصبوغة بالأحمر من شمس المساء، من شفق السماء الدامي. وكنت تبتسمين. كنت تتركين وراءك قرية كثيراً ما قلتِ لي عنها: «أحبها من أجلك، لكنني أكرهها لكل ما سوى ذلك، وحتى لأني ولدت فيها» وفكرتُ: «لن ترجع أبداً، لن ترجع مطلقاً».

ـ ما الذي تفعله هنا في مثل هذا الوقت؟ ألست في العمل؟

ـ لا يا جدتي. روخيليو يريدني أن أعتني بالطفل. إنني أُنزهه. من الصعب الاهتمام بالأمرين معاً: الطفل والتلغراف، بينما هو يمضي حياته بشرب البيرة في صالة البلياردو. ثم إنه لا يدفع لي شيئاً.

ـ لستَ هناك لتكسب نقوداً، وإنما لتتعلم. وعندما تتعلم شيئاً، يمكنك عندها أن تصبح مطالِباً. أما الآن فلست سوى متدرب، ربما تصير المسؤول غداً أو بعد غد. لكن الوصول إلى ذلك يحتاج إلى الصبر وإلى التذلل قبل أي شيء. وإذا كنت تُنزه الطفل، فافعل ذلك حباً بالرب. من الضروري أن تصبر.

ـ فليصبر آخرون غيري يا جدتي، فأنا لست أنفع للصبر.

ـ يالك ويا لطباعك الغريبة! أشعر بأن أمورك ستسوء يا بيدرو بارامو.

* * *

ـ إنها هواجسي إذن. لا بأس، كما كنت أقول لك، وهذا الذي قلته عن عدم عودته هو مجرد قول فقط. ما كاد حصانه يمر حتى سمعتُ من يطرق على النافذة. وتأمل أنت لتعرف إن كان ذلك وهماً من أوهامي. الحقيقة أن شيئاً دفعني للذهاب ورؤية مَنْ هناك. وكان هو، ميغيل بارامو. لم أستغرب رؤيته، فقد مضت فترة كان يقضي فيها الليالي في بيتي نائماً معي، إلى أن وجد الصبية التي سلبت لبّه.

«قلت لميغيل بارامو:

« ـ ماذا جرى؟ هل خذلتْك؟

«فقال لي:

« ـ لا. إنها مازالت تحبني. وما جرى هو أنني لم أستطع الوصول إليها. لقد ضيعتُ القرية. كان ثمة ضباب كثير ودخان ولست أدري أي شيء، لكنني كنت أعلم أن كونتلا لا وجود لها، لقد ذهبتُ بعيداً، حسب تقديراتي، ولم أجد شيئاً. إنني آتٍ لأروي لك أنت ذلك، لأنك تفهمينني. لو أخبرت الآخرين في كومالا لقالوا إنني مجنون، مثلما يقولون عني دائماً.

« ـ لا، لستَ مجنوناً يا ميغيل. لا بد أنك ميت. تذكر أنهم قالوا لك إن هذا الحصان سيقتلك يوماً. تذكر يا ميغيل بارامو. ربما أنك قمت ببعض الحماقات، وهذه أمر آخر.

« ـ لقد قفزت فقط عن السور الحجري الذي أمر أبي ببنائه. جعلت كولورادو يقفز عنه حتى لا أقوم بالالتفافة الطويلة التي يجب القيام بها الآن للوصول إلى الطريق. أنا أعرف أنني قفزت ثم تابعت الجري؛ ولكن، وكما قلت لك، لم يكن هناك سوى الدخان والدخان والدخان.

«قلت له:

« ـ سيتلوى أبوك من الحزن غداً. إني آسفة من أجله. والآن اذهب وارقد بسلام يا ميغيل. أشكرك لأنك أتيت لوداعي.

«وأغلقتُ النافذة.

«وقبل أن يبزغ الفجر أتى صبي من ميديا لونا ليقول لي:

« ـ السيد دون بيدرو يتوسل إليك. لقد مات ميغيل الصغير. يتوسل إليك أن تكوني إلى جانبه.

«قلت له:

« ـ أعرف ذلك. وهل طلبوا منك أن تبكي؟

« ـ أجل، لقد قال لي دون فولغور أن أخبرك وأنا أبكي.

« ـ حسن. قل لدون بيدرو إني آتية إليه. هل أحضروه منذ وقت طويل؟

« ـ ليس منذ أكثر من نصف ساعة. لو كان قبل ذلك، فربما كانوا أنقذوه. مع أنه، كما قال الطبيب الذي فحصه، كان بارداً منذ زمن طويل. وقد عرفنا بالأمر لأن كولورادو رجع وحده وأبدى هياجاً شديداً لم يدع معه أحداً ينام. أنت تعلمين كم كان كل منهما يحب الآخر، هو والحصان، حتى أني أكاد أعتقد بأن الحيوان حزين أكثر من دون بيدرو. فهو لم يأكل ولم ينم ولا يفعل أي شيء سوى العودة إلى الطواف وحسب. وكأنه يعرف. أتدرين؟ وكأنه يشعر في داخله بالتمزق والتآكل.

« ـ لا تنس إغلاق الباب عند ذهابك.

«ومضى الفتى الذي جاء من ميديا لونا.»

ـ أسمعتَ يوماً أنين ميت؟ ـ سألتني.

ـ لا يا دونيا أدوفيخيس.

ـ هذا خير لك.

* * *

تسقط القطرات واحدة بعد أخرى. يسمع المرء الماء النقي الخارج من الصخر يسقط على الإبريق. يسمع المرء. يسمع خريراً، أقداماً تحك الأرض،

تمشي، تروح وتجيء. والقطرات تواصل السقوط دون توقف. ويطفح الإبريق ويسكب الماء فوق أرض مبللة.

«استيقظ!»، يقولون له.

يتعرف على نبرة الصوت. يحاول التكهن من يكون، ولكن الجسد يضعف ويهوي متنوّماً ومسحوقاً تحت وطأة النعاس. تسحب يدان اللحاف وهما تمسكان به، وتحت دفئه يختبئ الجسد باحثاً عن الطمأنينة.

«استيقظ!»، يقولون مرة أخرى.

يهز الصوت الكتفين. ويجعل الجسد ينتصب. يفتح عينيه. تُسمع قطرات الماء المتساقطة على الإبريق الطافح. تسمع خطوات تتجرجر متثاقلة... والنحيب. عندئذ سَمِعَ النحيب. وهذا هو ما أيقظه: بكاء خافت، نحيل، ربما تمكن لنحوله من اجتياز متاهة النعاس، والوصول إلى الموضع الذي يعشش فيه الفزع.

نهض متمهلاً ورأى وجه امرأة يستند إلى إطار الباب، وهو ما يزال قاتماً بسبب الليل، وكان الوجه يبكي.

ـ لماذا تبكين يا أماه؟ ـ سألها، إذ أنه تعرف على وجه أمه مذ وضع قدميه على الأرض.

وقالت له:

ـ لقد ماتَ أبوك.

ثم، كما لو أن نوابض حزنها قد أُفلتت، دارت حول نفسها مرة ثم أخرى، ومرة ثم أخرى، إلى أن وصلت يدان إلى كتفيها وتمكنتا من وقف حركة جسدها.

أصبح الفجر مرئياً في السماء من خلال الباب. لم تكن ثمة نجوم، بل سماء رصاصية، رمادية، لم يضئها نور الشمس بعد. ضوء شاحب، وكأنه ليس ثمة نهار يبتدئ، وإنما بداية ليل آخذ بالقدوم.

ثمة، في الفناء، خارجاً، خطوات تطوف كأنها خطوات أنـاس. وجلبـة صامتة. وهنا، تلك المرأة، تقف علـى عتبـة البـاب، ويحـول جسـدها دون قدوم النهـار، وتسمح من خلال ذراعيهــا بظهـور أجـزاء مـن السـماء، ومـن تحت قدميها بنثارة من الضـوء، ضـوء مبعثر وكـأن الأرض تحتهـا غارقـة بالدموع. ثم النحيب. بكاء ناعم لكنه حاد مرة أخرى، والحزن الذي يلـوي الجسد.

ـ لقد قتلوا أباك.

ـ وأنتِ، من الذي قتلك يا أماه؟

* * *

«يوجد هواء وشمس، توجد غيوم. هنـاك في الأعلـى سمـاء زرقـاء وربمـا توجد وراءها أغنيات، ربما توجد أصوات أفضل... وباختصار يوجـد أمـل. يوجد أمل لنا، ضد غمنا.

«ولكن لا أمل لكَ أنت يا ميغيل بارامو، يـا مـن مـت دون غفـران ولـن تنال أية رحمة».

قلب الأب رينتيريا الجسد وأدى الصـلاة علـى عجـل. تعجـل لينتهـي سريعاً ويخرج دون أن يعطي المباركة الأخيرة لأولئك النـاس الذيـن يملـؤون الكنيسة.

ـ نريدك أن تباركه يا أبتاه!

ـ لا! ـ قال وهو يهز رأسه سلبياً: ـ لن أفعل. لقد كـان رجـلاً آثمـاً ولـن يدخل ملكوت السماء. إن الرب سيسيء الظن بي لو تشفعت من أجله.

كان يقول ذلك وهو يحاول تثبيت يديه كي لا يظهر ارتجافهمـا، لكنـه مضى.

لقد كان لتلك الجثة ثِقل كبير على نَفْس الجميع. كانت موضوعة فوق منصة، وسط الكنيسة، محاطة بشموع جديدة، وأزهار، وبأبٍ كان يقف وراء الجثة، وحيداً، منتظراً انتهاء الطقوس.

مر الأب رينتيريا بمحاذاة بيدرو بارامو محاولاً عدم لمس كتفه. رفع مرشة الماء المقدس بحركات ناعمة ورش الماء من أعلى إلى أسفل، بينما كانت تخرج من فمه همسات، قد تكون صلوات. ثم ركع وركع الجميع معه:

ـ الرحمة بعبدك يا رب.

وردت الأصوات:

ـ ليرقد بسلام، آمين.

وعندما بدأ يمتلئ بالغضب من جديد، رأى الجميع وهم يخرجون من الكنيسة حاملين معهم جثة ميغيل بارامو.

اقترب بيدرو بارامو وركع بجانبه:

ـ أنا أعرف أنك كنت تكرهه يا أبتاه. وأنت محق. فاغتيال أخيك، كما قالت الشائعات، اقترفه ابني، وقضية ابنة أخيك آنا، التي اغتصبها هو كما قدرت أنت، والإهانات والإساءات التي وجهها إليك في مناسبات عديدة، هي مبررات يتقبلها أيٌّ كان. ولكن انسَ الآن يا أبتاه. سامحه واغفر له كما قد يكون الرب قد غفر له.

وضع حفنة من القطع النقدية الذهبية فوق كرسي الركوع ونهض واقفاً:

ـ تقبّل هذا كصدقة لكنيستك.

كانت الكنيسة قد أصبحت خاوية. وكان هناك رجلان عند الباب ينتظران بيدرو بارامو الذي انضم إليهما، ولحقوا معاً بالنعش الذي كان ينتظر مستريحاً فوق أكتاف أربعة مراقبي عمال من ميديا لونا.

التقط الأب رينتيريا القطع النقدية واحدة واحدة، واقترب من المذبح وقال:

ـ إنها لك. فهو قادر على شراء الغفران. أنت تعلم إذا كان هذا هو الثمن. أما أنا يا ربي، فإني أقف تحت قدميك لأطلب منك أن تُظهر ما هو عدل وما هو ظلم، فكل شيء متاح لنا طلبه... ومن جهتي، أدِنْه يا رب.

ثم أغلق بعد ذلك بيت القربان.

دخل إلى حجرة المقدسات، وألقى بنفسه في أحد أركانها، وبكى هناك ألماً وحزناً إلى أن نضبت دموعه. ثم قال بعد ذلك:

ـ حسناً يا رباه. لقد كسبتَ أنت.

* * *

تناول الشوكولاتة أثناء العشاء مثلما يفعل كل ليلة. وكان يشعر بالطمأنينة.

ـ أتعلمين من هو الذي دفنوه اليوم يا آنيتا؟

ـ لا يا عماه.

ـ أتذكرين ميغيل بارامو؟

ـ أجل يا عماه.

ـ إنه هو.

أحنت رأسها.

ـ أنتِ متأكدة من أنه كان هو، أليس كذلك؟

ـ لست متأكدة تماماً يا عماه. فأنا لم أر وجهه. لقد أمسك بي ليلاً، في الظلام.

ـ كيف عرفتِ إذن أنه ميغيل بارامو؟

ـ لأنه قال لي: «أنا ميغيل بارامو يا آنا. لا تخافي» هذا ما قاله لي.

ـ ولكنك كنت تعرفين أنه قاتل أبيك، أليس كذلك؟

ـ أجل يا عماه.

ـ ماذا فعلتِ إذن لأبعاده عنك؟

ـ لم أفعل شيئاً.

احتفظا كلاهما بالصمت برهة. وكان يُسمع صوت الهواء الدافئ ما بين أوراق الريحان.

ـ لقد قال لي إنه آت لهذا الأمر بالذات، ليطلب مني الصفح ولأغفر له. ودون أن أتحرك من فراشي نبهته: «النافذة مفتوحة». فدخل.

«وما أن وصل حتى احتضنني كما لو كانت تلك هي الطريقة للاعتذار عما اقترفه. وابتسمتُ له. فكرتُ بما كنتَ قد علمتني إياه: يجب علينا ألا نكره أحداً أبداً. ابتسمت لأقول له ذلك، ولكنني فكرت بعد ذلك بأنه لم يستطع رؤية ابتسامتي، لأني لم أكن أراه بسبب سواد تلك الليلة. أحسست به فوقي وقد بدأ بعمل أشياء رذيلة معي».

«ظننتُ أنه سيقتلني. هذا ما ظننته يا عماه. حتى أنني لم أعد أفكر، كي أموت قبل أن يقتلني هو. لكنه لم يجرؤ على فعل ذلك بالتأكيد».

«عرفتُ هذا عندما فتحت عينيّ ورأيت ضوء الصباح يدخل من النافذة المفتوحة. وقبل هذه الساعة، أحسست بأنه لم يعد موجوداً».

ـ ولكن لا بد لك من شيء مؤكد. الصوت. ألم تتعرفي عليه من صوته؟

ـ لم أتعرف عليه من أي شيء. كنت أعرف فقط أنه قتل أبي. لم أكن قد رأيته من قبل على الإطلاق، وبعد ذلك لم أتمكن من رؤيته. لم يكن باستطاعتي يا عماه.

ـ لكنك تعرفين من هو.

ـ أجل. كنت أعرف شيئاً ما. وأعرف الآن أنه ولا بد في أعمق أعماق الجحيم، لأني التمست ذلك من جميع القديسين وبكل حماسي.

ـ لا توهمي نفسك كثيراً بهذا يا ابنتي. فمن يدري كم هم الذين يصلون من أجله الآن! بينما أنت وحدك. تضرعٌ واحد مقابل آلاف التضرعات. وبين هذه توجد تضرعات أعمق من تضرعك، كما هو حال أبيه.

وكاد أن يقول لها: «وأنا، غفرت له». لكنه فكر في ذلك فقط. لم يشأ أن يسيء إلى روح الشابة شبه المحطمة. وقبل أن يقول ذلك، أمسك بيديها، وقال لها خلاف ما كان يفكر:

ـ لنحمد الرب أبانا لأنه أخذه من هذه الأرض حيث سبب شروراً كثيرة، وليس مهماً الآن أن يضعه في سماواته.

* * *

مرق جواد يعدو حيث يتقاطع الشارع الرئيسي مع طريق كونتلا. لم يره أحد. ومع ذلك، فقد روت امرأة كانت تنتظر خارج القرية بأنها رأت الحصان يجري وقوائمه منحنية كما لو أنه سينكفئ على وجهه. وعرفت فيه حصان ميغيل بارامو الأشقر. وحتى أنها فكرت: «سيحطم هذا الحيوان رأسه». بعد ذلك رأته وهو ينتصب بجسده، ويمضي دون أن يخفف من سرعته، وهو يلوي عنقه إلى الوراء وكأنه مرتعب من شيء خلّفه وراءه».

وصلت هذه الأقاويل إلى ميديا لونا في ليلة الدفن، بينما كان الرجال يستريحون من المسيرة الطويلة التي قاموا بها إلى المدفن. وكانوا يتبادلون الحديث نفسه الدائر في كل مكان.

قال تيرينثيو لوبيانيس:

ـ لقد آلمني كثيراً هذا الميت. ومازال كتفاي يؤلمانني.

وقال أخوه أوبيبيادو:

ـ وأنا كذلك. فمفصلا إبهام قدميّ قد تورما بسبب هذا الأمر الذي أراده السيد، بأن ننتعل جميعنا الأحذية. وكأنه يوم عيد، أليس صحيحاً يا توربيو؟

ـ وماذا تريدني أن أقول لكم. أظن أنه قد مات قبل ميعاده.

في هذه الأثناء وصلت أقاويل جديدة من كونتلا. جاءت بها العربة الأخيرة.

ـ يقولون إن روحه تهيم في تلك الأنحاء. لقد لمحوها تقرع نافذة فلانة. مثلما كان يفعل هو. وإنها ترتدي السروال الجلدي وكل شيء.

ـ وهل تعتقد أن دون بيدرو، بمزاجه، سيسمح لابنه بمتابعة المتاجرة بالعجائز؟ إني أتخيله يقول له إذا ما رآه: «حسناً. أنت ميت الآن. فابق ساكناً في قبرك. ودع هذه الأمور لنا». وإذا ما رآه هائماً على وجهه، فإنني أكاد أراهن بأنه سيبعث به إلى المقبرة من جديد.

ـ أنت محق يا ساباس. فهذا لا يماشي الأمور.

تابع سائق العربة طريقه: «مثلما عرفت الأمر، أنقله».

كان ثمة شهب عابرة. تسقط كما لو أن السماء تمطر أنواراً.

قال تيرينثيو:

ـ انظروا فقط إلى الشرّابة التي تتدلى منها.

فأكمل خيسوس قائلاً:

ـ إنها تحتفل بمأتم ميغيل.

ـ ألا تكون طالع شؤم؟

ـ لمن؟

ـ ربما تحن أختك لعودته.

ـ لمن تقول هذا؟

ـ لك أنت.

ـ من الأفضل أن نذهب أيها الشبان. لقد تعبنا كثيراً وعلينا أن ننهض باكراً في الغد.

وذابوا كظلال.

ومع ذلك فقد صرخ أحدهم:

ـ قل لها ألا تبكي، فأنا هنا رهن إشارتها.

وأجابه آخر:

ـ سلم لي على أختك.

* * *

كان ثمة شهب عابرة. وأُطفئت الأنوار في كومالا.

عندئذ سادت السماء على الليل.

كان الأب رينتيريا يتقلب في فراشه غير قادر على النوم:

«كل هذا الذي يحدث هو بجريرتي ـ قال ـ من الخوف من إغضاب الذين يقومون بأودي. هذه هي الحقيقة، فهم الذين يعيلونني. أنا لا أحصل على شيء من الفقراء، فالصلوات لا تملأ المعدة. هكذا سارت الأمور حتى الآن. وهذه هي النتائج. إنه ذنبي. لقد خنت أولئك الذين يحبونني والذين منحوني إيمانهم ويأتونني لأتشفع لهم عند الرب. ولكن ما الذي حصلوا عليه بإيمانهم؟ كسب السماء؟ أم تطهير أرواحهم، ولماذا يطهرون أرواحهم، إذا كانوا في اللحظة الأخيرة... مازالت ماثلة أمام عيني نظرة ماريا ديادا، حين جاءتني لأخلص أختها أدوفيخيس:

» ـ لقد ساعدتْ من هم على شاكلتها دوماً. أعطتهم كل ما لديها. حتى أنها منحتهم ابناً، لهم جميعاً. ووضعته أمامهم ليعترف به أحدهم؛ لكن أياً منهم لم يفعل. عندئذ قالت لهم: «في هذه الحالة سأكون أنا أبوه أيضاً، مع أن الصدفة شاءت أن أكون أمه». أساؤوا ضيافتها لأنها كانت كريمة ولم تشأ إغضابهم أو معاداة أي منهم.

» ـ ولكنها انتحرت. تصرفت ضد يد الرب.

» ـ لم يبق أمامها طريق آخر. لقد قررتْ ذلك بدافع من كرمها أيضاً.

» ـ لقد أخطأت في اللحظة الأخيرة ـ هـذا مـا قلتـه لهـا ــ. في اللحظـة الأخيرة. فبعد كل تلك الحسنات المتراكمة لخلاصها، أضاعت كل شيء فجأة!

» ـ إنها لم تُضع شيئاً. لقد ماتت وهي تتألم كثيراً. والألم... لقـد قلت لنا حضرتك شيئاً عن الألم لم أعـد أتذكـره. وهـي ذهبـت بهـذا الألم. لقـد ماتت متلوية من الدماء التي كانت تخنقها. مازلت أرى ارتعاشـات فمهـا، كانت أكثر ارتعاشات تصدر عن كائن بشري، حزناً.

» ـ ربما تجد الخلاص إذا صليتم كثيراً.

» ـ إننا نصلي كثيراً يا أبتاه.

» ـ أقول ربما، وقد تنفعها الصلوات الجيورجية، ولكننا نحتاج في هـذا إلى المساعدة، لطلب قدوم قسيس. وهذا يكلف مالاً.

»وهناك، قبالة عيـني، كـانت نظـرة ماريـا ديـادا، امـرأة فقيرة مليئـة بالأولاد.

» ـ لا أملك مالاً. وأنت تعرف هذا يا أبتِ.

» ـ فلنترك الأمور على حالها إذن. ولنأمل بالله.

» ـ حاضر يا أبتاه».

لماذا تصبح تلك النظرة باسلة أمام الخضوع للقدر؟ وماذا يكلفه الغفـران، حين يكون من السهل قول كلمة أو اثنتين، أو حتـى مئـة كلمـة إذا تطلـب تخليص الروح ذلك؟ ما الذي يعرفه هو عن الفردوس والجحيم؟ ومع ذلـك، فقد كان يعـرف، هـو التائـه في قريـة بـلا اسـم، مَنْ هـم الذيـن اسـتحقوا الفردوس. كان ثمة «كاتالوج». بدأ بالتعرف على قديسي المذهب الكاثوليكي اعتباراً من قديسي اليوم: «القديسـة نونيلونيـا، عـذراء وشـهيدة. انـيرثيو، مطران. القديسـات سـالومي الأرملـة، وألوديـا ونولينـا العـذراوان. كـوردولا ودوناتا». وتابع القائمة... كان النعاس يوشك أن يسيطر عليه عندمـا أدرك وهو في السرير: «إنني أستعرض صفاً من القديسين كما لو كنـت أرى مـاعزاً تقفز».

خرج إلى الخارج وتطلع إلى السماء. كانت تمطر نجوماً. وتأسف لذلك، لأنه كان يرغب في رؤية سماء ساكنة. سمعَ الديكة. وأحس بغطاء الليل يلف الأرض. الأرض، «وادي الدموع هذا».

* * *

ـ خير لك يا بني، خير لك ـ قالت لي ادوفيخيس ديادا.

كان الليل قد تقدم. المصباح الذي كان يتقد في الركن بدأ يذوي، ثم ارتعش أخيراً وانطفأ.

شعرتُ أن المرأة قد نهضت وفكرت بأنها ستذهب بحثاً عن ضوء جديد. سمعت صوت خطواتها تبتعد. وبقيت أنتظر.

وعندما رأيت أنها لم تعد بعد مرور فترة من الوقت، نهضتُ أنا أيضاً. ومشيت بخطوات قصيرة، متلمساً طريقي في الظلام، إلى أن وصلت إلى حجرتي. وهناك جلست على الأرض بانتظار النعاس.

نمت نوماً متقطعاً.

وكان أن سمعت الصرخة في إحدى هذه الغفوات. كانت صرخة متثاقلة مثل زعقة سكير: «آه أيتها الحياة، لستِ تستحقينني!»

ونهضت بسرعة لأني سمعت الصوت بجوار أذني تقريباً، قد يكون آتياً من الشارع، لكنني سمعته هنا، ملتصقاً بجدار حجرتي. وعندما استيقظت كان كل شيء صامتاً، باستثناء سقوط فراشة وحفيف الصمت.

لا، لا يمكن تقدير عمق الصوت الذي أحدثته تلك الصرخة. وكأنما الأرض قد أُفرغتْ من هوائها. لا وجود لأي صوت، حتى ولا صوت نَفَس، ولا نبض قلب، كأن صوت الضمير نفسه قد توقف. وعندما انتهت اليقظة وبدأ الاطمئنان يعاودني، رجعت الصرخة من جديد واستمرت مسموعة لبرهة طويلة: «اتركوا لي على الأقل حق تخبّط الساقين الذي يتمتع به المحكومون بالشنق!»

عندئذ فُتح الباب على مصراعيه. وسألتُ:

ـ أهذه أنت يا أدوفيخيس؟ ما الذي يجري؟ أشعرت بخوف؟

ـ لست أدعى أدوفيخيس. أنا داميانا. علمت أنك هنا فأتيت لرؤيتك. أريد دعوتك للنوم في بيتي. ستجد هناك مكاناً تستريح فيه.

ـ داميانا ثيسنيروس؟ ألستِ ممن عاشوا في ميديا لونا؟

ـ أنا أعيش هناك. ولهذا تأخرت بالمجيء.

ـ لقد حدثتني أمي عن امرأة تدعى داميانا كانت قد عنت بي عندما ولدت. فأنت إذن...؟

ـ أجل، أنا. فأنا أعرفك مذ فتحتَ عينيك.

ـ سأذهب معكِ. فالصرخات لا تتركني بسلام هنا. ألم تسمعي ما كان يحدث؟ وكأنهم يقتلون أحدهم. ألم تسمعي؟

ـ ربما هو صدى محبوس هنا. ففي هذه الغرفة شنقوا توربيو ألدريتي منذ زمن بعيد. ثم أقفلوا الباب إلى أن يجف، حتى لا يجد جثمانه الراحة. لست أدري كيف استطعتَ الدخول، مع أنه لا وجود لمفتاح يفتح هذا الباب.

ـ دونيا أدوفيخيس هي التي فتحت . قالت لي إنها الغرفة الوحيدة الجاهزة لديها.

ـ أدوفيخيس ديادا؟

ـ هي نفسها.

ـ يا للمسكينة أدوفيخيس. لا بد أنها ما زالت تقاسي.

* * *

«فولغور سيدانو، رجل في الرابعة والخمسين، أعزب، المهنة وكيل، مخول برفع الدعاوى القضائية وملاحقتها، بالسلطة المخولة إلي وبحقي الشخصي أطالب وأدلي بما يلي...»

هذا ما كان قد قاله عندما رفع محضر لائحة الاتهام ضد ممارسات توربيو ألدريتي. وأنهى كلامه قائلاً: «وليثبت اتهامي بالانتفاع».

ـ ليس هناك من يستطيع نزع صفة الرجولة عنك يا دون فولغور. أنا أعرف أنك قادر. وليس ذلك بالسلطة التي وراءك، وإنما بنفسك.

كان يتذكر. وكان هذا أول ما قاله له ألدريتي، بعد أن كانا يسكران معاً، وقال محتفلاً بالمحضر:

ـ أنا وأنت سنمسح مؤخرتينا بهذه الورقة يا دون فولغور، لأنها لا تنفع لشيء آخر. وهذا ما تعرفه أنت. وفيما يخصك الآن، فقد أنجزت ما أمروك به، وأخرجتني أنا من الورطة، لأنك كنت قد أقلقتني، وقد نال كلٌ حقه. والآن عرفتُ حقيقة الأمر وهذا يُضحكني. تقول «الانتفاع». يجب على سيدك أن يخجل لأنه جاهل إلى هذا الحد.

كان يتذكر. وكانوا في نزل أدوفيخيس. حتى أنه هو نفسه سألها:

ـ اسمعي يا فيخيس، أيمكنك إعارتي الحجرة التي في الركن؟

ـ بل كل ما تشاء من الحجرات يا دون فولغور، استخدمها كلها إذا أردت. هل سيبيت رجالك هنا؟

ـ لا، واحد فقط. دعك منا واذهبي إلى النوم. اتركي لنا المفتاح فقط.

ـ مثلما قلت لك يا دون فولغور ـ قال له توربيو ألدريتي ـ لا أحد ينتقص من رجولتك، ولكنك تضجرني بابن المحروقة هذا، ابن سيدك.

كان يتذكر. وكان هذا هو آخر ما سمعه يقوله بحواسه الخمس. وبعد ذلك تصرف بجبن، مطلقاً الصرخات. «تقول القوة التي ورائي، هيا!»

* * *

قرع بقبضة السوط على باب بيت بيدرو بارامو. وفكر في المرة الأولى التي فعل بها ذلك، قبل أسبوعين. وانتظر وقتاً لا بأس به بالطريقة نفسها التي انتظر بها في المرة الماضية. ونظر إلى حزمة الشرائط السوداء المعلقة في أعلى الباب مثلما فعل في المرة السابقة أيضاً. ولكنه لم يقل لنفسه: «لقد رفعوها. أصبحت الأولى شاحبة، بينما الأخيرة تلمع كأنها من الحرير، مع أنها ليست سوى خرقة مصبوغة». وكان يهم بالذهاب عندما ظهر وجه بيدرو بارامو.

ـ أدخل يا فولغور.

إنها المرة الثانية التي يلتقيان بها. في المرة الأولى رآه هو فقط، لأن بيدريتو كان حديث الولادة حينئذ. وهذه المرة. يمكن القول تقريباً أنها المرة الأولى. وقرر أن يحدثه كند. هيا! لحق به بخطوات واسعة وهو يضرب بالسوط على ساقيه. «سيعرف الآن أني أنا من يعرف كل شيء. سيعرف. ولهذا أنا آت إليه».

ـ اجلس يا فولغور. هنا يمكننا أن نتحدث بهدوء أكبر.

كانا في الحظيرة. تمدد بيدرو بارامو في مذود وانتظر:

ـ لماذا لا تجلس؟

ـ أفضل البقاء واقفاً يا بيدرو.

ـ كما تشاء. ولكن لا تنسى أن تناديني "دون بيدرو".

ومن هو هذا الفتى حتى يتكلم هكذا؟ حتى والده دون لوقا بارامو ما كان ليتجرأ على ذلك. وفجأة يأتي هذا، الذي لم يقف يوماً في ميديا لونا، ولم يعرف شيئاً عن العمل حتى ولا بالسماع، ليكلمه كما لو أنه يكلم فلاحاً. يا للسخرية!

ـ كيف تسير الأمور؟

وأحس أن فرصته قد جاءت. «جاء دوري الآن»، هكذا فكر.

ـ سيئة. لم يبق شيء. لقد بعنا آخر بقرة.

وبدأ بإخراج الأوراق ليخبره بالقدر الـذي ارتفعـت إليـه الديـون. وكـان يقول: «إننا مدينون بالكثير»، عندما سمع:

ـ لمن نحن مدينون؟ لا يهمني كم، وإنما لمن.

راجع له قائمة من الأسماء. وانتهى قـائلاً: «ليـس لدينـا مـوارد لندفـع منها. هذه هي القضية».

ـ ولماذا؟

ـ لأن عائلتك امتصت كل شيء. كانوا يطلبون ويطلبون، دون أن يعيدوا شيئاً. وهذا يكلف غالياً. لقد قلتُ من قبل: «سـيأتون علـى كـل شـيء مـع الوقت». حسن، وها قد أتوا على كل شيء. إنما هناك من هو مهتـم بشـراء الأراضي. ويدفع سعراً جيداً. يغطي سـندات الديـون المستحقة ويزيـد منـه بعض الشيء، مع أن هذا شيء غير كافٍ.

ـ ألا تكون أنت هذا المشتري؟

ـ كيف يخطر لك أن تفكر أنني أنا؟

ـ أنا يخطر لي كل شيء. غداً سنبدأ بإصلاح أمورنـا. لنبـدأ بـالأختين بريثيادو. تقول إننا مدينون لهما بأكبر مبلغ؟

ـ أجل. وهن من دفعنا لهن أقل قدر. فقد كان أبوك يؤجل الدفـع لهمـا حتى النهاية دائماً. علمتُ أن إحداهن، وتدعى ماتيلدي، ذهبت لتعيش في المدينة. لست أدري إلى مدينة غوادالاخارا أم إلى كوليما. أما «لـولا»، أعـني دولوريس، فبقيت هنا كمالكة لكـل شـيء. أنـت تعـرف: مزرعـة إنمديـو. ونحن يجب أن ندفع لها.

ـ ستذهب غداً لتطلب يد «لولا».

ـ وكيف تريدها أن تقبلني، فأنا قد أصبحت هرماً.

ـ ستطلبها لي. فلديها بعض الظرافة رغم كـل شـيء. سـتقول لهـا إنـني متيم بها. وإذا كان ذلك يناسبها، فاطلب في طريقك مـن الأب رينتيريـا أن يعد لنا المعاملة. كم معك من المال؟

ـ لاشيء يا دون بيدرو.

ـ أعطه وعداً إذن. قل له إنك ستدفع عند إنجاز المعاملة. وأكاد أجزم أنه لن يضع أية صعوبات. افعل هذا غداً بالذات.

ـ وبالنسبة إلى ألدريتي؟

ـ وماذا عن ألدريتي؟ لقد ذكرت لي الأختين بريثيادو وآل فريغوسو وآل غوسمان. بماذا خرج لنا ألدريتي الآن؟

ـ بقضية الحدود. فقد أمر بنصب السياج وهو يطلب منا الآن أن نقيم الجدار الناقص لنتم التقسيم.

ـ دع هذا إلى ما بعد. لا تشغل نفسك بالجدران. لن تكون هناك جدران. فالأرض لا تتجزأ. فكر في الأمر يا فولغور، مع أنك لن تستطيع فهمه. رتب أولاً أمر «لولا». ألا تريد الجلوس؟

ـ سأجلس يا دون بيدرو. الحقيقة أنني بدأت أحب التعامل معك.

ـ ستقول لـ «لولا» كيت وكيت، وأنني أحبها. هذا مهم. وأنا أحبها فعلاً يا سيدانو. من أجل عينيها. أتعلم؟ هذا ما ستفعله غداً باكراً. سأعفيك من مهماتك كوكيل. انس مشاكل ميديا لونا.

* * *

«من أية شياطين أتى الفتى بهذه البراعة؟ ـ هكذا فكر فولغور سيدانو وهو عائد من ميديا لونا ـ لم أكن أنتظر منه شيئاً. وسيدي المتوفى، دون لوقا، كان يقول عنه: «إنه لا ينفع، فهو من صنف ضعيف». وكنت أوافقه الرأي. «عندما أموت، اذهب يا فولغور وابحث لك عن عمل آخر». «أجل يادون لوقا». «أقول لك يا فولغور أنني حاولت إرساله إلى المدرسة الاكليريكية لأرى إن كان هذا سيؤمن له الطعام على الأقل، ويكفل له القيام بأود أمه عندما أغيب أنا عنهما، ولكنه لم يحسم الأمر حتى في هذه

القضية». فكنت أقول له: «أنت لا تستحق أن يكون لك ابـن مثـل هـذا يـا دون لوقا». «لا يمكن الاستفادة منه في شيء»، حتى أنه لا ينفع لأستند عليه عندما أشيخ. لقد أتلفني، ماذا يريد يا فولغور». «إنها مصيبة فعـلاً يـا دون لوقا».

والآن. لولا أنه كان شديد التعلق بميديـا لونـا، لما أتـى لمقابلتـه. لكـان انصرف دون أن ينذره. لكنه كان يحب هذه الأرض. هـذه التـلال الجـرداء المشغولة كثيراً والتي مازالت تتحمل سـكة المحـراث، مانحـة ذاتهـا أكـثر فأكثر... ميديا لونا الحبيبة... وملحقاتها: «تعالي هنـا يـا أرض انمديـاتو». ويراها تأتي. وكأنها كانت هناك منذ الأزل. هذا مـا تعنيـه امـرأة في نهايـة المطاف. وقال: «طبعاً». وضرب ساقيه بالسوط عند اجتيازه البوابة الكـبرى للمزرعة.

* * *

كان خداع دولوريس أمـراً بمنتهـى السـهولة. حتـى أن عينيهـا التمعتـا ووجهها اضطرب.

ـ اعذرني لأني خجلـت يـا دون فولغـور. لم أكـن لأظـن أن دون بيـدرو يهتم بي.

ـ إنه لا ينام وهو يفكر فيكِ.

ـ ولكنه يستطيع أن يختار. ففي كومالا كثير مـن الفتيـات الجميـلات. ماذا سيقلن عندما يعلمن؟

ـ إنه يفكر فيك أنت فقط يا دولوريس. ولا يفكر في أحد سواك.

ـ إنك تجعلني أرتجف يا دون فولغور. لم أكن أتخيل ذلـك ولـو مجـرد خيال.

ـ إنه رجل محافظ جداً. ودون لوقا ليرحمه الله، قال له إنكِ لستِ جديرة به. فأطبق فمه لمجرد الطاعة فقط. وبما أن والده لم يعد موجوداً الآن، فليس هناك أي عائق. وكان هذا هو قراره الأول، ولكنني تأخرت في تنفيذه بسبب مشاغلي الكثيرة. فليكن الزفاف بعد غد. ما رأيك؟

ـ أليس هذا باكر جداً؟ لا يوجد لدي شيء جاهز. ولا بد لي من التوصية على جهاز العرس. وسأكتب إلى أختي.. لا، من الأفضل أن أبعث إليها رسولاً. ولكنني لن أكون جاهزة قبل الثامن من نيسان. نحن اليوم في الأول منه. نعم، بالكاد حتى الثامن. قل له أن ينتظر بضعة أيام قليلة.

ـ إنه يتمنى لو يتزوج الآن حالاً. وإذا كانت مسألة جهاز العرس، فسنتولى نحن أمره. وأم بيدرو المتوفاة تأمل منك أن تلبسي ملابسها. فهذه العادة موجودة في العائلة.

ـ ولكن هناك شيئاً آخر هذه الأيام. شؤون نساء، أنت تعلم، آه! كم أشعر بالحرج لأني أقول لك هذا يا دون فولغور. إنك تجعل الدم يغور في وجهي. إنني في الدورة. آه! يا للخجل.

ـ وماذا؟ الزواج ليس مسألة وجود دورة أو عدم وجودها. إنه الرغبة. وعندما تتوفر الرغبة فإن كل شيء يفيض عن اللزوم.

ـ يبدو أنك لم تفهمني يا دون فولغور.

ـ أفهمك. الزفاف سيكون بعد غد.

وتركها وهي تمد ذراعيها طالبة ثمانية أيام، فقط ثمانية أيام لا غير.

«يجب ألا أنسى أن أقول لدون بيدرو ـ ياله من فتى ذكي بيدرو هذا ـ، أقول له ألا ينسى أن يقول للقاضي إن أملاك الجانبين ستكون مجتمعة. «تذكر أن تقول له ذلك غداً بالذات يا فولغور».

أما دولوريس، فقد هرعت من جهتها إلى المطبخ حاملة إبريق الغسل لتملأه بالماء الساخن: «سأجعل هذه الدورة تنتهي بأسرع ما يمكن. سأجعلها تنزل هذه الليلة بالذات. ولكنها ستستمر على أي حال خلال

أيامي الثلاثة. لا مناص من ذلك. يا للسعادة! شكراً لك يا رب لأنك وهبتني دون بيدرو». ثم أضافت: «مع أنه سيملني فيما بعد».

* * *

ـ لقد طلبتُ يدها وهي أكثر من موافقة. أما الأب القس، فإنه يريد ستين بيزو ليغض النظر عن مسألة إعلان الزواج قبل عقده. قلت له إننا سنعطيه المبلغ في الوقت المناسب. قال إنه يحتاجه لإصلاح المذبح ولأن الطاولة التي في غرفة طعامه مقشرة تماماً. وعدته بإرسال طاولة جديدة له. فقال إنك لا تذهب إلى الصلاة أبداً. وعدته بأنك ستذهب. وقال إنكم لم تدفعوا له الأعشار منذ وفاة جدتك. فقلت له ألا يقلق. وقد وافق.

ـ ألم تطلب شيئاً مقدماً من دولوريس؟

ـ لا يا سيدي. لم أتجرأ. هذه هي الحقيقة. لقد كانت سعيدة فلم أرغب في أن أعكر عليها حماستها.

ـ إنك طفل.

«يا الله! أنا طفل. وفوق كاهلي خمس وخمسون سنة. هو الذي لم يكد يبدأ الحياة وأنا الذي على بعد خطوات قليلة من القبر».

ـ لم أشأ أن أقوض سعادتها.

ـ رغم كل شيء، أنت طفل.

ـ لا بأس يا سيدي.

ـ ستذهب الأسبوع القادم إلى ألدريتي. ستقول له أن يتفحص السور. فقد اقتحم أراضي ميديا لونا.

ـ لقد قام بقياسات مضبوطة. وقد أكد لي ذلك.

ـ قل له إذن إنه مخطئ. وإن حساباته غير صحيحة. وإذا اقتضى الأمر اهدم الجدار.

ـ والقوانين؟

ـ أية قوانين يا فولغور؟ نحن سنصنع القانون من الآن فصاعداً. ألديك بعض الزعران ممن يعملون في ميديا لونا؟

ـ أجل، هناك بعضهم.

ـ ابعث بهم إذن في مهمة إلى ألدريتي. وارفع ضده دعوى تتهمه بـ«الانتفاع» أو ما يخطر لك أنت. وذكّره بأن لوقا بارامو قد مات. ولا بد من اتفاقات جديدة معي.

كانت السماء ما تزال زرقاء. كانت هناك بعض الغيوم القليلة. وكان الهواء يهب هناك في الأعلى، لكنه يتحول إلى حر هنا في الأسفل.

* * *

ـ هذه القرية ممتلئة بالأصداء. حتى أن الأصداء تبدو وكأنها حبيسة في فراغ الجدران أو تحت الأحجار. عندما تسير، تشعر وكأن الخطى تدوسك. تسمع صريراً. قهقهات. قهقهات هرمة جداً، كما المتعبة من الضحك. وأصوات أبلاها الاستعمال. تسمع كل هذا. وأعتقد بأنه سيأتي يوم تنطفئ فيه هذه الأصوات.

هذا ما كانت تقوله لي داميانا ثيسنيروس بينما نحن نجتاز القرية. وكان الصخب يصلني حتى ميديا لونا. فاقتربت لأرى حفلة الرقص تلك، ورأيت هذا: ما نراه الآن. لا شيء. لا أحد. الشوارع مقفرة مثلما هي الآن.

بعد ذلك لم أعد أسمعها. فالسعادة تُنهك. ولهذا لم أستغرب أن ينتهي كل ذلك.

ـ أجل ـ عادت داميانا ثيسنيروس تقول ـ هذه القرية مليئة بالأصداء. أنا لم أعد أفزع. أسمع نباح الكلاب وأدعها تنبح. وفي أيام الهواء تأتي الريح ساحبة معها أوراق أشجار، وهنا كما ترى، لا توجد أشجار. لقد كانت الأشجار موجودة في زمن مضى، وإلا من أين تأتي هذه الأوراق.

»والأسوأ من كل ذلك هو عندما تسمع الناس يتحدثون، وكأن الأصوات تخرج من شق ما، ورغم ذلك، فهي واضحة لدرجة أنك تتعرف عليها. والآن بالذات، بينما أنا آتية، مررت بجماعة تسهر حول ميت. فتوقفت لأصلي أبانا الذي في السماوات. وكنت أفعل ذلك، عندما انفصلت امرأة عن الأخريات وأتت لتقول لي:

» ـ داميانا! تضرعي إلى الله من أجلي يا داميانا!

»ونزعتْ خمارها فتعرفت على وجه أختي سيستينا.

»سألتها:

» ـ ما الذي تفعلينه هنا؟

»عندئذ هرعت لتختبئ بين النساء الأخريات.

»وأختي سيستينا، إذا كنت لا تعرف، ماتت عندما كان عمري اثنتي عشرة سنة. كانت الأخت الكبرى. وقد كان عدد أفراد عائلتنا ستة عشر شخصاً يعيشون في البيت نفسه، وهكذا بإمكانك أن تحسب كم من الزمن مضى على موتها. وهاهي الآن، مازالت تهيم على وجهها في هذه الدنيا. ولذا لا تفزع إذا ما سمعت أصداء أحدث عهداً يا خوان بريثيادو.»

سألتها:

ـ وهل أخبرتك أمي بأني سآتي؟

ـ لا. وبالمناسبة، ماذا عن أحوال أمك؟

وقلت:

ـ لقد ماتت.

ـ ماتت؟ وممَّ؟

ـ لم أعرف مم. ربما حزناً. فقد كانت تتنهد كثيراً.

ـ هذا سيئ. فكل تنهيدة هي مثل جرعة من الحياة تخرج من المرء. لقد ماتت إذن؟

ـ أجل. ربما أنك كنت تعرفين ذلك ولا بد.

ـ ولماذا سأعرفه؟ منذ سنوات عديدة لم أعد أعرف شيئاً.

ـ كيف أتيت إليّ إذن؟

ـ ...

ـ هل أنت حية أم ميتة يا داميانا؟ أخبريني يا داميانا!

وفجأة وجدت نفسي وحيداً في تلك الشوارع الخالية. كانت نوافذ البيوت المشرعة للسماء تسمح لتفرعات العشب الناشفة بالبروز. وكانت الجدران المقشرة تكشف عن طوبها المفتت.

صرختُ:

ـ داميانا! داميانا ثيسنيروس!

وأجابني الصدى: «... آنا... نيروس...! ... آنا... نيروس...!»

* * *

سمعتُ الكلاب تنبح، وكأنني قد أيقظتها. ورأيت رجلاً يعبر الشارع.

ناديته:

ـ آيه، أنت!

وأجابني صوتي نفسه:

ـ آيه، أنت!

وتمكنت من سماع امرأتين تتحدثان وكأنهما عند التفافة المنعطف:

ـ انظري من الآتي من هناك. أليس هذا فيلوتيو اريتشيغا؟

ـ إنه هو. ضعي وجه النفاق.

ـ من الأفضل أن نذهب. إذا لحق بنا فلا بد أنه يحب إحدانا حقاً. من منا يلاحق برأيك؟

ـ أنت بكل تأكيد.

ـ أظنه يلاحقك أنت.

ـ دعك من المشي بسرعة. لقد توقف عند ذلك المنعطف.

ـ إنه لا يلاحق أياً منا إذن، أترين؟

ـ ولكن، كيف سيكون الحال لو أنه يلاحقك أنت أو يلاحقني أنا. كيف سيكون الحال؟

ـ لا تتعللي بالأوهام.

ـ هذا أفضل على أية حال. فالأقاويل هنا تردد أنه هو الذي يتولى تدبير النساء لدون بيدرو. وهذا ما هربنا منه.

ـ آه، نعم؟ لا أريد أية علاقة بهذا العجوز.

ـ من الأفضل أن نذهب.

ـ أحسنت القول. هيا بنا من هنا.

* * *

الليل. ما بعد منتصف الليل بكثير. والأصوات:

ـ ... أقول لك أنه إذا كان موسم الذرة جيداً هذا العام، فسأتمكن من أن أدفع لك. أما إذا تضرر الموسم، فعليك أن تنتظر.

ـ أنا لا أطالبك. وأنت تعلم أنني نزيه في معاملتك. ولكن الأرض ليست لك. فأنت تشتغل في أرض يملكها آخرون. فمن أين ستجني ما تدفعه لي؟

ـ ومن الذي قال إن الأرض ليست لي؟

ـ يؤكدون أنك قد بعتها لبيدرو بارامو.

ـ أنا لم أقترب مجرد اقتراب من هذا السيد. الأرض ما زالت ملكي.

ـ هذا ما تقوله أنت. أما هناك فيقولون إن كل شيء له.

ـ فليأتوا وليقولوا لي هذا.

ـ انظر يا غاليليو، أنا، وبكل ثقة هنا، أحترمك. ولشـيء مـا أنـت زوج أختي. وأنت تحسن معاملتها، لا أحد يشك في ذلك. ولكنك لن تأتي لتتنكر أمامي أنك بعت الأرض.

ـ أقول لك أني لم أبعها لأحد.

ـ إنها لبيدرو بارامو. ولا بد أنه قـد صـرّف الأمـر هكـذا. ألم يـأت دون فولغور لمقابلتك؟

ـ لا.

ـ ستراه يأتيك غداً بكل تأكيد. وإذا لم يكن في الغـد، فسـيأتيك في يـوم آخر.

ـ عليه أن يقتلني أو يموت إذن، ولكنه لن يصل إلى ما يريد.

ـ فليرحمك الله، آمين يا صهري. إذا كانت لديك شكوك.

ـ ستراني، وسترى ذلك. لا تخف عليّ. فلشيء ما دبغـت أمـي جلـدي جيداً حتى لا أكون مطواعاً.

ـ إلى اللقاء غداً إذن. وقل لفيليسـيتا أنـي لـن أحضـر الليلـة للعشـاء. لا أحب أن أقول فيما بعد: «لقد كنت معه في اليوم السابق».

ـ سنحتفظ لك بشيء من الطعام، فربما تشجعت في آخر لحظة.

وسمع وقع الخطوات التي كانت تنصرف وسط جلبة مهاميز.

* * *

ـ ستذهبين معي يا تشونا غداً، في الفجر. لقد أسرجت البهائم.

ـ وإذا مات والدي غضباً؟ فهو عجوز جداً... لن أسامح نفسـي أبـداً إذا ما أصابه شيء بسببي. إني الوحيدة الـتي تسـاعده في قضـاء حاجاتـه. ولا

وجود لأحد غيري. لماذا تتعجل خطفي؟ انتظر بعض الوقت. إنه لن يتأخر حتى يموت.

ـ هذا ما قلتِه لي منذ سنة. بل انك اتهمتني بعدم المجازفة، وكنتِ قرفانة من كل شيء، حسب زعمك. لقد أعددت البغلتين وهما جاهزتان. هل ستذهبين معي؟

ـ دعني أفكر.

ـ أنت تعلمين كم تعجبينني يا تشونا. ما عدت أتحمل رغباتي يا تشونا. وهكذا ستذهبين معي أو تذهبين معي.

ـ دعني أفكر. أفهم. علينا أن ننتظر حتى يموت. بقي له القليل. عندئذ سأذهب معك ولن تحتاج لاختطافي.

ـ وهذا أيضاً قلته لي منذ سنة.

ـ وماذا؟

ـ لقد اضطررت إلى استئجار البغلتين. وهما عندي. إنهما تنتظرانك. دعيه يتدبر أموره وحده. أنت جميلة. شابة. لن يعدم وجود امرأة عجوز تأتي للعناية به. فالأرواح المحسنة هنا أكثر من اللزوم.

ـ لا أستطيع.

ـ بل تستطيعين.

ـ لا أستطيع. أتعلم؟ إني أشفق عليه. لشيء ما هو أبي.

ـ ولا كلمة إذن. سأذهب لأرى خوليانا، فهي تموت بي.

ـ حسن. لن أقول لك شيئاً.

ـ ألا تريدين رؤيتي غداً؟

ـ لا. لا أريد رؤيتك أبداً.

* * *

ضجيج. أصوات. جلبة. أغان نائية:

خطيبتي أعطتني منديلاً

على حواشيه دموع...

أصوات مصطنعة. وكأن من يغنون هم من النساء.

رأيت العربات وهي تمر. كانت الجواميس تتحرك ببطء. والحجارة تصر تحت العجلات. والرجال يأتون نائمين.

«... في فجر كل يوم تهتز القرية مع مرور العربات. إنها تأتي من كل الجهات، محملة بالسماد، وبعرانيس الذرة، وبأعشاب البارا. تصر بعجلاتها راجة النوافذ، وموقظة الناس. إنها الساعة نفسها التي تفتح فيها الأفران وتنتشر رائحة الخبز الطازج. وقد ترعد السماء فجأة. ويهطل المطر. قد يأتي الربيع. ستعتاد هناك على «المفاجآت» يا بني.»

عربات فارغة، تضج في صمت الشوارع. وتضيع في طريق الليل المظلم. وتضيع الظلال. وصدى الظلال.

فكرت في الرجوع. أحسست بأثر الطريق التي أتيت منها هناك في الأعلى، مثل جرح مفتوح ما بين ظلمة التلال.

عندئذ ربت أحد على كتفي.

ـ ما الذي تفعله هنا؟

ـ أتيت بحثاً... ـ وكنت سأقول عمن، عندما توقفت: ـ أتيت بحثاً عن أبي.

ـ ولماذا لا تدخل؟

دخلت. كان بيتاً نصف سقفه منهار. وقرميد السقف على الأرض. السقف على الأرض. وكان في النصف الآخر رجل وامرأة.

سألتهما:

ـ ألستما ميتين؟

فابتسمت المرأة. ونظر الرجل إليّ بصرامة.

ـ إنه سكران ـ قال الرجل.

ـ إنه خائف فقط ـ قالت المرأة.

كان ثمة مصباح بترول. وكان هناك سرير من الخيزران، وكرسي من الخيزران عليه ملابسها. لأنها كانت عارية، مثلما رمى بها الله إلى الدنيا. وكان هو كذلك.

ـ سمعنا أحداً يئن ويضرب رأسه ببابنا. وهناك كنت أنت. ما الذي جرى لك؟

ـ لقد جرت لي أمور كثيرة، لذلك أرى من الأفضل أن أنام.

ـ لقد كنا نائمين.

ـ فلننم إذن.

* * *

أخذ الفجر يطفئ ذكرياتي.

كنت أسمع بين الحين والآخر صوت الكلمات، وألاحظ الفرق. لأن الكلمات التي كنت قد سمعتها حتى ذلك الحين، التي عرفتها حتى ذلك الحين، لم تكن لها رنة، لم تكن ترن، كان تُحَسّ، إنما بلا رنين، كالكلمات التي تُسمع في الأحلام.

كانت المرأة تتساءل:

ـ من يكون؟

ويجيب الرجل:

ـ من يدري.

ـ كيف وصل إلى هنا؟

ـ من يدري.

ـ كأني سمعته يقول شيئاً عن أبيه.

ـ وأنا سمعته يقول هذا أيضاً.

ـ ألا يكون ضائعاً؟ تذكر عندما أتى إلى هنا أولئك الذين قالوا إنهم ضائعون. وكانوا يبحثون عن مكان اسمه لوس كونفينيس، وقلتَ لهم إنكَ لا تعرف أين هو ذلك المكان.

ـ نعم. إني أذكر، ولكن دعيني أنام. فالفجر لم يبزغ بعد.

ـ بقي له قليل. وإذا كنت أحدثك فلكي تستيقظ. لقد أوصيتني بأن أوقظك قبل الفجر. ولهذا أحدثك. انهض!

ـ ولماذا تريدينني أن أنهض؟

ـ لست أدري لماذا. لقد قلت لي في الليل أن أوقظك. ولم توضح لي لماذا.

ـ في هذه الحالة دعيني أنام. ألم تسمعي ما قاله هذا عندما أتى؟ أن نتركه ينام. هذا هو الشيء الوحيد الذي قاله.

كأن الأصوات قد مضت. وكأن ضجتها قد ضاعت. وكأنها قد غرقت. لا أحد يقول شيئاً. إنه الحلم.

وسمعتُ مرة أخرى عند ذلك:

ـ لقد تحرك الآن. إذا خطر له، فإنه سيستيقظ. وإذا رآنا هنا فسيسألنا عن أشياء.

ـ أية أسئلة يستطيع أن يسألنا؟

ـ حسن. يجب أن يقول شيئاً، أليس كذلك؟

ـ دعيه. لا بد أنه جد متعب.

ـ أتظن ذلك؟

ـ كفى، اصمتي يا امرأة.

ـ انظر، إنه يتحرك. أترى كيف يتمرغ؟ كما لو أن شيئاً يهزه من الداخل. أعرف هذا لأنه حدث لي.

ـ ما الذي حدث لكِ؟

ـ ذاك.

ـ لا أعرف عم تتكلمين.

ـ ما كنتُ لأتحدث لولا أني تذكرت عند رؤية هذا، متهيجاً، ما حدث لي عندما فعلت بي أول مرة. وكيف آلمني وكم ندمت على ذلك.

ـ أي ذلك؟

ـ ما شعرتُ به عندما فعلتَ بي ذلك الشيء، ومع أنكَ لا تريدني أن أعرف، لقد عرفت بأنه عمل خبيث.

ـ وما تزالين حتى الآن بهذه الحكاية؟ لماذا لا تنامين وتتركينني أنام؟

ـ لقد طلبتَ مني أن أنبهك. وهذا ما أفعله. والله إني أفعل ما طلبت مني فعله. هيا! لقد حان الوقت لكي تنهض.

ـ دعيني بسلام يا امرأة.

بدا على الرجل أنه قد نام. وبقيت المرأة تدمدم. ولكن بصوت خافت:

ـ لا بد أن الفجر قد بزغ، لأن ثمة ضوءاً. أستطيع أن أرى هذا الرجل من هنا، وإذا كنت أراه فذلك لوجود ضوء كاف لرؤيته. لن تتأخر الشمس بالشروق. طبعاً، هذا لا يمكن السؤال عنه. إذا فكرنا، فهذا الرجل ليس سوى شرير. وقد أعطيناه مأوى. ليس مهماً أننا فعلنا ذلك لهذه الليلة فقط، لكننا نخبئه. وهذا يجلب لنا الشر على المدى البعيد... انظر إليه كيف يتحرك، وكأنه غير مستريح. يبدو أنه لن يجد الراحة في روحه.

كان النهار يتضح. خرّب النهار الظلال. حللها. وساد الحجرة التي كنت فيها شعور بالدفء من حرارة الأجساد النائمة. ومن خلال رموشي كانت تصلني بَلجة الشروق. أحسستُ بالضياء. وسمعت:

إنه يتلوى على نفسه مثل محكوم باللعنة. وله كل مظاهر الإنسان الخبيث. انهض يا دونيس! انظر إليه. إنه يتمرغ بالأرض، متلوياً. إنه

يريّل. لا بد أنه رجل تسبب بموت كثيرين. وأنت لم تحاول حتى مجرد التعرف عليه.

ـ لا بد أنه رجل بائس. نامي ودعينا ننام!

ـ ولماذا سأنام إذا كنت لا أشعر بالنعاس؟

ـ انهضي وامضي إلى حيث لا تسببين الإزعاج!

ـ هذا ما سأفعله. سأذهب لأشعل النار. وفي طريقي سأقول لهذا الشخص أن يأتي لينام معك هنا، في المكان الذي سأتركه أنا.

ـ قولي له.

ـ لا أستطيع. إنه يخيفني.

ـ اذهبي إذن إلى شؤونك ودعينا بسلام.

ـ هذا ما سأفعله.

ـ وماذا تنتظرين؟

ـ ها أنا ذاهبة.

شعرتُ بأن المرأة تنزل عن السرير. ضربتْ قدميها الحافيين بالأرض ومرت فوق رأسي. فتحتُ عيني وأغمضتهما.

عندما استيقظت، كانت شمس الظهيرة في السماء. وكان إلى جانبي قدح قهوة. حاولت أن أشربه. رشفت بضع رشفات.

ـ لا يوجد لدينا المزيد. اعذرنا لأنه قليل. فنحن فقراء لكل شيء، فقراء...

كان صوت امرأة.

وقلت لها:

ـ لا تقلقي بشأني. لا تقلقي. فأنا معتاد. كيف يستطيع المرء الذهاب من هنا؟

ـ إلى أين؟

ـ إلى أي مكان.

ـ توجد دروب كثيرة. أحدها يؤدي إلى كونتلا، وآخر يأتي من هناك. ودرب آخر يتجه مباشرة إلى الجبل. وهذا الذي يبدو هنا، ولست أدري إلى أين يؤدي. ـ وأشارت لي بإصبعها إلى فجوة السطح، حيث كان السقف محطماً ـ وهذا الآخر الذي يمضي من هنا، ويمر من ميديا لونا. وهناك آخر يخترق الأرض كلها وهو يمضي أبعد من الجميع.

ـ ربما هذا هو الطريق الذي جئت منه.

ـ إلى أين يذهب؟

ـ يذهب إلى سايولا.

ـ تصور. وأنا كنت أظن أن سايولا في هذه الجهة الأخرى. لقد راودتني دائماً أحلام معرفتها، يقولون إن هناك كثيراً من الناس، أليس كذلك؟

ـ مثلما هي الحال في كل مكان.

ـ تصور. ونحن هنا وحيدون تماماً. نموت من أجل التعرف ولو على قدر ضئيل من الحياة.

ـ إلى أين ذهب زوجك؟

ـ إنه ليس زوجي. إنه أخي، مع أنه لا يريد أن يعرف ذلك أحد. تسألني أين ذهب؟ مؤكد أنه ذهب بحثاً عن عجل بري يمضي شارداً في هذه الأنحاء. هذا ما قاله لي على الأقل.

ـ ومنذ متى وأنتما هنا؟

ـ منذ الأزل، لقد ولدنا هنا.

ـ لا بد أنكما تعرفان دولوريس بريثيادو.

ـ ربما يعرفها هو، دونيس. أنا أعرف قليلاً جداً عن الناس. فأنا لا أخرج أبداً. إنني هنا، حيث تراني، هنا دائماً... حسن، ليس دائماً دائماً. منذ جعلني امرأته فقط. منذ ذلك الحين وأنا أقضي الوقت حبيسة، لأني

أخاف أن يروني وهو لا يريد أن يصدق ذلك. ولكن، أليس صحيحاً أن مظهري يبعث على الخوف؟ ـ دنت إلى حيث تصيبها الشمس ــ انظر إلى وجهي!

كان وجهاً عادياً.

ـ وما الذي تريدينني أن أراه فيك؟

ـ ألا ترى الخطيئة فيّ؟ ألا ترى هذه البقع البنفسجية التي مثل قروح الجرب، تغطيني من أعلى إلى أسفل؟ وهذا من الخارج فقط، أما من الداخل فإني صرت بحراً من الوحل.

ـ ومن سيراك إذا كان لا وجود لأحد هنا؟ لقد جبت القرية كلها ولم أر أحداً.

ـ هذا ما تظنه أنت، ولكن مازال هناك بعضهم. قل لي أليس فيلومينو حياً، ودوروتيا، وميلكيادس، وبرودينثيو العجوز، وسوسيتينس، هؤلاء جميعاً أليسوا أحياء؟ وكل ما في الأمر أنهم يمضون وقتهم منزوين. لست أدري ما الذي يفعلونه في النهار. لكنهم يقضون الليالي مغلقين الأبواب على أنفسهم. فهذه الساعات هنا مليئة بالمخاوف. لو أنك ترى حشود الأرواح التي تهيم في الشوارع. عندما يخيم الظلام يبدؤون بالخروج. وليس هناك من يجب رؤيتهم. إنهم كثيرون، ونحن قليلون جداً، حتى أننا لا نتكلف مشقة الصلاة من أجلهم لتخليصهم من أحزانهم. لأن صلواتنا لن تكفي لهم جميعاً. ربما ينال كل منهم جزءاً من «أبانا الذي في السماوات». وهذا لن يفيدهم في شيء. ثم إن هناك معاصينا في الوسط. فلا أحد منا نحن الذين ما زلنا أحياء ينعم بغفران الرب. لا أحد منا يستطيع رفع عينيه إلى السماء دون أن يشعر بهما ملوثتين بالعار. والعار لا براء منه. هذا على الأقل ما قاله لي المطران الذي مرّ من هنا منذ زمن لتثبيت العماد. لقد وقفت في طريقه واعترفت له بكل شيء.

«فقال لي:

« ـ هذا لا يمكن غفرانه.

« ـ إنني أشعر بالعار.

« ـ ليس هذا هو العلاج.

« ـ فلتزوجنا أنت!

« ـ ابتعدي من طريقي!

« ـ أردت أن أقول لك أن الحياة قد جمعتنا، بحصرنا ووضع أحدنا إلى جانب الآخر. لقد كنا وحيدين هنا... كنا وحدنا هنا. وكان لا بد من إعمار القرية بطريقة ما. وربما أصبح لديك من تعمده وأنت عائد من هنا.

« ـ انفصلا عن بعضكما. هذا كل ما يمكن عمله.

« ـ ولكن. كيف سنحيا؟

« ـ مثلما يحيا البشر.»

ومضى ممتطياً بغله، وجهه صارم، دون أن ينظر إلى الوراء، كما لو أنه خلف هنا صورة الضياع. ولم يعد بعدها أبداً. وهذا هو السبب الذي يجعل هذا المكان مليئاً بالأرواح، محض تسكع يقوم به أناس ماتوا دون مغفرة ولن يحصلوا عليها بأي حال، ولن يستفيدوا منا شيئاً في هذا الشأن. ها قد أتى. أتسمعه؟

ـ نعم، أسمعه.

ـ إنه هو.

فُتح الباب.

ـ ما الذي جرى للعجل؟ ـ سألته المرأة.

ـ لقد خطر له ألا يأتي الآن، لكنني تتبعت أثره وأكاد أعرف أين هو. سأمسك به اليوم ليلاً.

ـ وهل ستتركني وحيدة الليلة؟

ـ ربما.

ـ لن أستطيع التحمل. إني أحتاج إلى وجودك معي. فهذه هي الساعة الوحيدة التي أشعر فيها بالاطمئنان. ساعة الليل.

ـ سأذهب هذه الليلة من أجل العجل.

وتدخلت أنا:

ـ لقد علمت لتوي أنكما أخوان.

ـ علمت لتوك؟ أنا أعرف هذا قبلك بكثير. وهكذا خير لك ألا تتدخل. فنحن لا نحب أن نكون موضوعاً للحديث.

ـ لقد قلت ما قلته بنية التفاهم. وليس لغرض آخر.

ـ وما الذي تفهمه أنت؟

ووقفت هي إلى جانبه، مستندة إلى كتفه وقالت أيضاً:

ـ وما الذي تفهمه أنت؟

قلت:

ـ لا شيء. كل يوم أفهم أقلّ. ـ ثم أضفت: ـ أرغب في الرجوع إلى المكان الذي جئت منه. سأستغل ما تبقى من ضوء النهار.

فقال لي:

ـ من الأفضل أن تنتظر. ابق حتى الغد. فلن يتأخر الظلام في الانتشار، وجميع الدروب متشابكة ووعرة. من الممكن أن تضل الطريق. غداً أقودك أنا.

ـ لا بأس.

* * *

رأيت أسراباً من الزرازير تمر من خلال السقف المفتوح على السماء، هذه العصافير التي تطير في المساء قبل أن يسد الظلام دروبها. ثم رأيت بعض الغيوم المفتتة بفعل الريح الآتية لأخذ النهار معها. وبعدها، خرجت نجمة المساء، وبعد ذلك القمر.

لم يكن الرجل والمرأة معي. لقد خرجا من الباب المؤدي إلى الفناء، وعندما رجعا كان الليل قد حل. وهكذا لم يعلما بما حدث أثناء وجودهما خارجاً.

وهذا هو ما حدث:

دخلتْ إلى الحجرة امرأة ، آتية من الشارع. كانت عجوزاً طاعنة في السن، ونحيلة كأنهم قد شدّوا جلدها على العظم. دخلتْ وجالت بعينيها المستديرتين على أرجاء الغرفة. واتجهت مباشرة إلى حيث السرير وأخرجت من تحته حزمة. تفحصتها. ثم وضعت بعض شراشف النوم تحت إبطها وانصرفت على رؤوس أقدامها وكأنها لا تريد أن توقظني.

بقيتُ متيبساً، حابساً أنفاسي، ومحاولاً النظر إلى جهة أخرى، إلى أن تمكنتُ أخيراً من إمالة رأسي والنظر إلى هناك، حيث التحمت نجمة المساء مع القمر.

سمعتُ:

ـ خذ هذا!

لم أجرؤ على الالتفات.

ـ خذه! سيجعلك تتحسن. إنه ماء زهر البرتقال. أعرف أنك خائف لأنك ترتجف. سيخف خوفك بهذا.

تعرفت على تلك اليد، وعندما رفعت بصري تعرفت على الوجه. وسألني الرجل الذي كان وراءها:

ـ أتشعر بالمرض؟

ـ لست أدري. إني أري أشياء وأناساً حيث لا تريان أنتما على ما يبدو أحداً. لقد كانت هنا امرأة منذ قليل. ولا بد أنكما رأيتماها وهي تخرج.

فقال للمرأة:

ـ تعالي. دعيه وحيداً. لا بد أنه صوفي.

ـ علينا أن نحمله لينام في السرير. انظر إليه كيف يرتجف، إنه محموم بكل تأكيد.

ـ لا تقلقي بشأنه. إن هؤلاء الناس يتخذون هذا الوضع ليلفتوا الانتباه. لقد تعرفت على أحدهم في ميديا لونا وكان يدعي أنه عراف. وما لم يعرفه أبداً هو أنه سيموت بمجرد أن يعرف السيد أكاذيبه. لا بد أنه أحد هؤلاء المتصوفين. يقضون حياتهم في التنقل بين القرى، «سعياً وراء ما تمنحهم إياه العناية الإلهية»، ولكنه لن يجد هنا حتى ما يسد رمقه ويخلصه من الجوع. أترين كيف أنه توقف عن الارتجاف؟ وهذا لأنه يسمعنا.

* * *

كأن الزمن قد انعكس. عدت أرى النجمة ملتحمة بالقمر... الغيوم وهي تتفكك. وأسراب الزرازير. وبعدها مباشرة المساء الذي كان مفعماً بالضياء.

الجدران وهي تعكس شمس الأصيل. خطواتي وهي تصر على الحجارة. البَغّال الذي يقول لي: «ابحث عن دونيا أدوفيخيس، إذا كانت ما تزال على قيد الحياة!»

ثم حجرة مظلمة. وامرأة تشخر إلى جانبي. ألاحظ أن تنفسها ليس منتظماً كما هو تنفس من يغط في النوم، بل هو أقرب إلى أنها غير نائمة وتقلد الأصوات التي يُحدثها النائم فقط. كان الفراش الذي من باقات الاوتاتي(*) مغطى بأكياس لها رائحة البول، كأنهم لم يعرضوها للشمس أبداً، وكانت الوسادة عبارة عن قطعة خيش مملوءة بعيدان أشجار شوكية أو بصوف قاس جداً أو أنه أصبح قاسياً لكثرة ما تشرب بالعرق حتى غدا كالحطب.

(*) الأوتاتي أو إكليل الجبل: نبات بري عطر الرائحة.

كنت أحس بساقي المرأة العاريتين إلى جوار ركبتي، وبنَفَسها إلى جانب وجهي. وجلستُ على السرير مستنداً على شيء مثل طوب الوسادة.

سألتني:

ـ ألا تنام؟

ـ لا أشعر بالنعاس. لقد نمت النهار كله. أين أخوك؟

ـ لقد ذهب في هذه الأنحاء. وقد سمعتَه يقول إلى أين سيذهب. ربما لن يعود هذه الليلة.

ـ إنه يذهب دائماً إذن؟ رغماً عنك؟

ـ أجل. وربما لن يعود. فهكذا بدؤوا جميعهم. أنا ذاهب إلى هنا، أنا ذاهب إلى هناك، إلى أن يبتعدوا كثيراً، ويجدوا أن من الأفضل ألا يعودوا. وكان يحاول الذهاب دائماً، وأظن أن دوره قد جاء الآن. وربما دون أن أدري، تركني معك لتعتني بي. لقد رأى أنها فرصته. وما قاله عن ذلك العجل البري ليس إلا ذريعة. سترى أنه لن يعود.

أردت أن أقول لها: «سأخرج بحثاً عن قليل من الهواء، لأني أحس بالغثيان»، لكنني قلت:

ـ لا تقلقي. سيعود.

وعندما نهضتُ، قالت لي:

ـ لقد تركت لك شيئاً فوق الموقد في المطبخ. إنه قليل جداً، ولكنه شيء يكفي لتسكين جوعك.

وجدت قطعة من اللحم المقدد وبعض أقراص العجة على الموقد.

ـ إنها أشياء استطعت الحصول عليها من أجلك ـ سمعتها تقول لي من هناك ـ لقد استبدلتها من أختي بشرشفين نظيفين كنت أحتفظ بهما منذ زمن أمي. وكان عليها أن تأتي لتأخذهما. لم أشأ قول ذلك أمام دونيس، ولكنها المرأة التي رأيتها أنت وأخافتك كثيراً.

سماء سوداء مفعمة بالنجوم. والنجم الأكبر بين جميع النجـوم يقبـع إلى جانب القمر.

* * *

ـ ألا تسمعينني؟ ـ سألتُ بصوت خافت.

وأجابني صوتها:

ـ أين أنتَ؟

ـ أنا هنا، في قريتكِ. مع معشركِ. ألا ترينني؟

ـ لا يا بني. لا أراك.

بدا صوتها وكأنه قد أحاط بكل شيء. وكان يضيع فيما وراء التراب.

ـ لا لأراك.

* * *

رجعتُ إلى نصف السقف حيث تنام تلك المرأة وقلت لها:

ـ سـأبقى هنـا، في ركـني هـذا. فالسـرير في نهايـة المطـاف قـاس مثـل الأرض. إذا ما جرى لك شيء فأنذريني.

وقالت لي:

ـ لن يرجع دونيس. لقد لمحت ذلك في عينيه. كـان ينتظـر قـدوم أحـد ليذهب. ستتولى أنت أمر العناية بي. أم أنك لا تريد العناية بي؟ تعال لتنام معي.

ـ إنني مرتاح هنا.

- من الأفضل أن تصعد إلى السرير. لأن التوريكات ستأكلك حيث أنت.
عندئذ ذهبت ونمت معها.

* * *

أيقظني الحر على حد منتصف الليل. والعرق. كان جسد تلك المرأة المصنوع من تراب، والمحاط بقشور من تراب، يتحلل وكأنه يذوب في بركة من الوحل. وكنت أشعر بأني أسبح وسط العرق الذي يقطر منها، وافتقدت الهواء اللازم للتنفس. عندئذ نهضتُ. كانت المرأة نائمة. وكان يفور من فمها دوي فقاعات شبيهة بالحشرجة.

خرجت إلى الشارع بحثاً عن الهواء، ولكن الحر الذي كان يلحقني لم ينفصل عني.

المسألة أنه لم يكن هناك هواء، وإنما الليل الخدر والساكن وحسب، مسخناً بقيظ آب.

لم يكن ثمة هواء. وكان علي أن أمتص نفس الهواء الذي يخرج من فمي، وأن أستوقفه بيدي قبل أن يذهب. كنت أحس به يذهب ويأتي، وهو ينقص في كل مرة، إلى أن أصبح خفيفاً جداً وانفلت من بين أصابعي إلى الأبد.

أقول إلى الأبد.

أذكر أنني رأيت شيئاً يشبه غيوماً رغوية تزوبع فوق رأسي ثم تمسحت بتلك الرغوة وضعتُ في تغيمها. وكان هذا آخر ما رأيت.

* * *

ـ أتريدني أن أصدق أن الاختناق قد قتلك يا خوان بريثيادو؟ لقد وجدتك في الساحة، بعيداً عن بيت دونيس، وكان هو معي أيضاً، وقال إنك تتظاهر بالموت. وقد سحبناك فيما بيننا نحن الاثنين إلى ظل البوابة، لقد كنتَ متيبساً تماماً، متشنجاً مثلما يموت من يموتون خوفاً. ولو أنه لم يكن ثمةَ هواء للتنفس في هذه الليلة التي تتحدث عنها، لما أسعفتنا قوانا على حملك ودفنك. وها أنت ترى أننا ندفنك.

ـ معك حق يا دوروتيو. أقلت أن اسمك دوروتيو؟

ـ لا فرق. مع أن اسمي دوروتيا. ولكن لا فرق.

ـ هذا صحيح يا دوروتيا. لقد قتلتني الأصوات الهامسة.

«ستجد هناك حبي. المكان الذي أحببته. حيث أذوتني الأحلام. قريتي، منتصبة فوق السهل. مليئة بالأشجار والأوراق، مثل كنزيّة خبأنا فيها ذكرياتنا. ستشعر أن المرء يتمنى هناك لو يعيش إلى الأبدية. الفجر، الصباح، الظهيرة والليل، كلها الشيء نفسه دائماً، إنما مع اختلاف الهواء. هناك، حيث يبدل الهواء لون الأشياء، حيث يُهوّي الحياة وكأنه الهمس، وكأنه همسة نقية من همسات الحياة...»

ـ أجل يا دوروتيا. لقد قتلني الهمس. مع أني كنت أحمل خوفاً مزمناً. لقد كان يلتحم بي، حتى لم أعد أتحمله. وعندما التقيت بالهمسات تفزرت بي الأوتار.

«معك حق، لقد وصلت إلى الساحة. قادني صخب الناس إلى هناك وظننت أنهم موجودون حقاً. لم أكن بكامل وعيي، أذكر أنني أتيت مستنداً إلى الجدران وكأنني أمشي على يدي. ويبدو أن الجدران هي التي كانت تقطر الهمس وكأنه ينز من بين الحجارة والملاط المقشر. أنا سمعته. كان أصوات أناس، لكنها ليست أصواتاً واضحة، وإنما خفيفة، كأنها تهمس لي شيئاً عند مروري، أو كأنها تئز في مسمعي. ابتعدت عن الجدران وتابعت المشي في منتصف الشارع، لكنني بقيت أسمعها، كما لو أنها ترافقني، أمامي أو ورائي. لم أكن أشعر بالحر كما قلت لك من قبل، بل على

العكس، لقد كنت أشعر قبل ذلك بالبرودة. مذ خرجت من بيت تلك المرأة التي قدمت لي سريرها، والتي رأيتها، كما قلت لك، تتحلل في ماء عرقها، منذ ذلك الحين أصابتني البرودة. وكان البرد يزداد أكثر فأكثر كلما مشيت، إلى أن تجعد جلدي. أردت الرجوع وفكرت بأني سأجد إذا ما عدت الدفء الذي تركته لتوي، لكنني ما إن سرت قليلاً حتى أدركت أن البرد يخرج مني، من دمي بالذات. عندئذ اعترفت بأني خائف. سمعت الضوضاء الكبرى في الساحة وظننت أن خوفي سيخف هناك بين الناس. ولهذا السبب وجدتموني في الساحة. لقد عاد دونيس إذن؟ المرأة كانت متأكدة من أنها لن تراه أبداً.

ـ كان الوقت صباحاً عندما وجدناك. وكان هو عائداً لست أدري من أين، فأنا لم أسأله.

ـ حسن، لقد وصلت إلى الساحة. وأسندت نفسي إلى دعامة أحد الأبواب. ورأيت أنه لا وجود لأحد، مع أنني بقيت أسمع الهمس وكأنه أصوات أناس كثيرين في يوم سوق. همس متشابه، بلا معنى، يشبه الصوت الذي يصدر عن الريح عند اصطدامها بأغصان شجرة في الليل، في حين لا تظهر الشجرة ولا الأغصان، لكن يُسمع الحفيف. هكذا. ولم أتحرك أي خطوة أخرى. بدأت أشعر بذلك الأزيز المضغوط يقترب مني ويدور حولي مثل سرب من النحل، إلى أن تمكنت من تمييز بعض الكلمات الخالية من الصخب تقريباً: «ابتهل إلى الرب من أجلنا». هذا ما سمعتهم يقولونه لي. عندئذ تجمدتْ روحي. ولهذا السبب وجدتماني ميتاً.

ـ كان من الأفضل لو أنك لم تخرج من أرضك. ما الذي جئت تفعله هنا؟

ـ لقد قلت لك في البدء. أتيت بحثاً عن بيدرو بارامو، لأنه كان أبي على ما يبدو. لقد شدني الوهم.

ـ الوهم؟ هذا يكلف غالياً. فقد كلفني أن أعيش أكثر من اللازم. دفعت بهذا دين العثور على ابني، ولنقل أنه لم يكن إلا وهماً آخر، لأنه لم يكن

لي أي ابن على الإطلاق. وبعد أن مت الآن، أصبح لدي متسع من الوقت لأفكر وأدرك كل شيء. بل إن الله لم يمنحني العش الذي أخبئه فيه. ولم يكن لي سوى هذه الحياة المتجرجرة، حملت خلالها عينيّ الحزينتين من هنا إلى هناك، انظر بهما شزراً وكأنني أبحث وراء الناس، مرتابة بأن أحداً قد خبأ طفلي. كل هذا كان بسبب حلم لعين. فقد كان لي حلمان: أحدهما أسميه «المبارك» والآخر «اللعين». الأول هو الذي جعلني أحلم بأن لي ابناً. ولم أتخل عن الإيمان بأن هذا صحيح طول حياتي، لأني أحسست به بين ذراعي، طرياً، كله فم وعينان ويدان، وقد احتفظت لزمن طويل بأثر عينيه النائمتين وبنبض قلبه في أصابعي. وكيف لا أؤمن بأن ذلك كان حقيقة؟ كنت أحمله معي أينما ذهبت، محاطاً بذراعي. وفجأة فقدته. لقد قالوا لي في السماء إنهم قد أخطأوا معي. وإنهم منحوني قلب أم، ولكن رحم امرأة عادية. وهذا هو حلمي الآخر. وصلتُ إلى السماء وتطلعت لأرى ما إذا كنت سأتعرف على وجه ابني بين الملائكة. لا شيء. جميع الوجوه كانت متشابهة، مصنوعة في القالب نفسه. عندئذ سالتُ. فاقترب مني أحد أولئك القديسين، ودون أن يقول شيئاً، غرس إحدى يديه في معدتي وكأنه يغرسها في كومة من الشمع. وعندما سحبها أراني شيئاً يشبه قشرة جوز: «هذا يُثبت ما يبرهن لك».

«أنت تعرف كيف يتكلمون بطريقة غريبة هناك في الأعلى، ولكن يمكن فهم كل شيء. أردت أن أقول لهم إن ذلك الشيء ليس سوى معدتي المنكمشة من الجوع وقلة الأكل، لكن قديساً آخر من أولئك القديسين دفعني من كتفي وأشار لي إلى بوابة الخروج: «اذهبي لتستريحي بعض الوقت على الأرض يا بنيتي، وحاولي أن تكوني صالحة حتى يكون مطهرك أقصر أمداً».

«هذا هو الحلم «اللعين» والذي استخلصت منه أنه لم يكن لي أي ابن أبداً. هذا ما أدركته متأخرة، عندما تضخم جسدي، عندما برز عمودي الفقري فوق رأسي، عندما لم أعد أستطيع المشي. وبالضبط، عندما بدأت

القرية تُقفر، فالجميع اتخذوا طريقهم إلى أماكن أخرى وذهب معهم الإحسان الذي كنت أعيش عليه. فجلست أنتظر الموت. وبعد أن التقيناك قررتْ عظامي أن تستكين. وفكرت: «لن يهتم أحد بي». إنني شيء لا يزعج أحداً. وكما ترى، فأنا لم أسرق مكاناً من الأرض. لقد دفنوني في قبرك نفسه واكتفيت بالفراغ الذي بين ذراعيك فقط، هنا في هذا الركن حيث تجدني. ويخطر لي فقط أنه كان يجب أن أكون أنا التي احتضنك. أتسمع؟ إنها تمطر في الخارج. ألا تشعر بوقع المطر؟»

ـ أشعر كأن أحداً يمشي فوقنا.

ـ دعك من المخاوف. ما عاد بإمكان أحد أن يخيفك. حاول التفكير في أمور سارة لأننا سنبقى مدفونين زمناً طويلاً.

* * *

سقطت عند الفجر قطرات مطر غليظة على الأرض. وكانت تُصدر صوتاً أصم عند ارتطامها بتراب الأثلام الطري والمفكك. ومر طائر لعوب قريباً من الأرض وأنَّ مقلداً أنين طفل، وعندما ابتعد قليلاً سُمع وهو يطلق أنيناً كأنين التعب، وأبعد من ذلك، حيث يبدأ تفتح الأفق، أطلق فواقاً ثم قهقهة ليعود بعدها ويئنّ من جديد.

شم فولغور سيدانو رائحة التراب وأطل ليرى كيف يفتض المطر الأثلام. فرحت عيناه الصغيرتان. وأخذ ثلاث جرعات من ذلك الطعم وابتسم حتى بدت أسنانه وقال:

«هيا! هاهي سنة طيبة أخرى تجيئنا.» ثم أضاف: «تعالي أيتها المياه اللذيذة، تعالي. اهطلي حتى تتعبي! وبعد ذلك اجرِ إلى هنا، تذكري أننا شققنا الأرض بالعمل من أجل أن تستريحي وحسب».

وأطلق ضحكة.

عاد الطائر اللعوب من ذرع الحقول ومر أمامه وأنَّ أنيناً مكتوماً.

شدد المطر ماءه حتى أغلق السماء هناك، حيث بدأ الفجر بالبزوغ، وبدا الظلام الذي كان قد أخذ بالانسحاب، وكأنه يعود من جديد.

صرّت بوابة ميديا لونا الكبرى عندما انفتحت، وقد بللها النسيم. وخرج منها اثنان في البداية، ثم اثنان آخران، وبعدهما آخران، وهكذا إلى أن أصبحوا مئتي رجل على خيولهم انتشروا في الحقول الماطرة.

ـ يجب تفريق مواشي انميديو إلى أبعد مما كانت استاغوا، وطاردوا مواشي استاغوا إلى هضاب بيلمايو ـ هكذا كان يأمرهم فولغور سيدانو عند خروجهم ـ وشِدّوا عليها، فها هو الماء قد جاءنا!

لقد كرر ذلك مرات عديدة، ولكن الأخيرين لم يسمعوا سوى: «من هنا إلى هناك، ومن هناك إلى أبعد».

كانوا جميعهم، واحداً واحداً، يرفعون أيديهم إلى قبعاتهم ليُفهموه بأنهم قد فهموا.

وما أن خرج الرجل الأخير، حتى دخل ميغيل بارامو على جواده منطلقاً بأقصى سرعة، ودون أن يخفف من سرعته، ترجل عن الجواد أمام أنف فولغور تقريباً، تاركاً الحصان وحده يبحث عن مذوده.

ـ من أين أنت آت في مثل هذه الساعة أيها الفتى؟

ـ إنني آت من الحلَب.

ـ ومَنْ كنت تحلب؟

ـ أراهن أنك لن تحزر؟

ـ لا بد أنها دوروتيا الكواراكا. فهي الوحيدة التي تحب الصبيان.

ـ أنت أبله يا فولغور، ولكن الذنب ليس ذنبك.

ومضى ليقدموا له الفطور دون أن ينزع المهمازين.

وسألته داميانا ثيسنيروس السؤال نفسه في المطبخ:

ـ من أين أنت آت يا ميغيل؟

ـ من هنا، من زيارة بعض الأمهات.

ـ لا أريدك أن تغضب. اعذرني. كيف يصنعون لك البيض؟

ـ مثلما تحبينه أنت.

ـ إني أكلمك بحسن نية يا ميغيل.

ـ أعرف ذلك يا داميانا. لا تقلقي. اسمعي، أتعرفين واحدة اسمها دوروتيا، ويلقبونها كواراكا.

ـ نعم. إذا أردت رؤيتها فها هي في الخارج. إنها تأتي باكراً إلى هنا لتأخذ فطورها. وهي تحمل لفافة وتهدل لها قائلة إنه طفلها. يبدو لي أن مصيبة قد حلت بها في زمنها، ولكن بما أنها لا تتكلم أبداً، فلا أحد يعرف ما الذي جرى لها. إنها تعيش على الصدقات.

ـ يا للكهل اللعين! سألعب معه لعبة خبيثة تجعل من عينيه دَوّارة.

ثم وقف يفكر فيما إذا كانت تلك المرأة تفيده في شيء. ودون أن يتردد طويلاً، مضى إلى باب المطبخ الخلفي ونادى دوروتيا:

ـ تعالي هنا، سأعرض عليك اتفاقاً ـ قال لها.

ومن يدري أي نوع من الاقتراحات سيعرض عليها، لكن الحقيقة أنه عندما عاد للدخول من جديد كان يفرك كفيه. وصاح بداميانا:

ـ إليّ بهذا البيض! ـ ثم أضاف: ـ من اليوم فصاعداً قدمي لهذه المرأة من الطعام نفسه الذي تقدمينه لي، ولا تبخلي عليها.

ذهب فولغور سيدانو في هذه الأثناء إلى عنابر الغلال ليقيس ارتفاع مخزون الذرة. لقد كان قلقاً من وجود نقص، لأن موسم الحصاد مازال بعيداً. والحقيقة أنهم لم يزرعوا إلا منذ وقت قريب. «أريد أن أرى إن كان يكفينا». ثم أضاف: «يا لهذا الفتى! إنه مثل أبيه، لكنه بدأ مبكراً جداً. إذا استمر على هذه الحال فلا أظن أنه سيصل. وقد نسيت أن أذكر له أنهم أتوا أمس يتهمونه بقتل رجل. إذا ما استمر هكذا...»

تنهد وحاول أن يتخيل أين أصبح رعاة البقر الآن. لكن مهر ميغيل بارامو الأشقر استرعى انتباهه وهو يحك مقدمة وجهه بالكوخ. وفكر: «حتى أنه لم يرفع السرج عنه. ولن يفعل ذلك. لقد كان دون بيدرو أكثر تفاهماً معنا على الأقل وكانت له لحظات هدوء. ولكنه يتساهل كثيراً مع ميغيل. وقد أخبرته بالأمس عما فعله ابنه فأجابني: «أقنع نفسك بفكرة أني أنا الذي فعلت ذلك يا فولغور، فهو غير قادر على فعله: ليس لديه من القوة ما يكفي لقتل أحد بعد. فعمل شيء كهذا يحتاج إلى كليتين بهذا الحجم». وأشار بيديه هكذا، وكأنه يقدر حجم قَرعة. «ألقِ مسؤولية كل ما يفعله عليّ أنا».

ـ سيسبب لك ميغيل أوجاع رأس كثيرة يا دون بيدرو. فهو يهوى المشاجرات.

ـ دعه يتحرك. إنه ما زال طفلاً. كم صار عمره؟ لا بد أنه صار سبعة عشر عاماً. أليس كذلك يا فولغور؟

ـ هذا ممكن. أذكر وكأنهم أحضروه وليداً بالأمس. ولكنه عنيف جداً ويحيا متسرعاً جداً حتى أنني أرى أحياناً أنه يلعب لعبة السباق مع الوقت. سيخسر أخيراً، وسترى.

ـ إنه ما يزال طفلاً يا فولغور.

ـ ليكن مثلما تقول يا دون بيدرو، ولكن هذه المرأة التي أتت باكية بالأمس، مدعية أن ابنك قتل زوجها، كانت في أقصى درجات الحزن. فأنا أعرف كيف أقدر مبلغ الحزن يا دون بيدرو. وهذه المرأة كانت تحمل الحزن بالكيلو. عرضت عليها خمسين هكتولتراً من الذرة لتنسى القضية، ولكنها لم تقبل. عندئذ وعدتها بأن نصلح الضرر بطريقة ما. ولم تقتنع.

ـ ومن هي؟

ـ إنها من أناس لا أعرفهم.

ـ ليس لك أن تقلق إذن يا فولغور، فهؤلاء الناس لا وجود لهم.

وصل إلى عنابر الغلال وأحس بحرارة الذرة. أمسك حفنة منها بين يديه ليرى إن كان السوس لم يصلها بعد. قاس الارتفاع، وقال: «سيكفي. وعندما ينمو المرعى لن نضطر إلى تقديم الذرة للمواشي. يوجد الآن ما يكفي».

وبينما هو عائد نظر إلى السماء الملبدة بالغيوم: «سنحصل على الماء لوقت طويل». ونسي كل ما عدا ذلك.

* * *

ـ لا بد أن الطقس يتبدل هناك في الخارج. لقد كانت أمي تقول لي أنه ما أن يبدأ المطر، حتى يمتلئ كل شيء بالأنوار وبرائحة خضراء تفوح من البراعم. كانت تروي لي كيف يصل مدّ الغيوم، ويهطل على الأرض، ويشوشها مبدلاً ألوانها... أمي التي عاشت طفولتها وأفضل سنوات عمرها في هذه القرية، والتي لم تتمكن حتى من المجيء للموت هنا. بل بعثت بي أنا بدلاً من أن تأتي بنفسها. إنه لأمر غريب يا دوروتيا، إذ لم أتمكن حتى من رؤية السماء ويجب أن تكون على الأقل السماء نفسها التي عرفتها هي.

ـ لست أدري يا خوان بريثيادو. فمنذ سنوات عديدة لم أرفع وجهي، حتى أنني نسيت السماء. ولو أني فعلت ذلك، فما الذي سأسكبه؟ فالسماء عالية جداً، وعيناي ضعيفتان، وكنت أعيش سعيدة لأنني أعرف أين هي الأرض. وعلاوة على ذلك، فقد فقدت كل اهتمام بالسماء مذ أكد لي الأب رينتيريا بأنني لن أعرف الجنّة أبداً. بل ولن أستطيع حتى رؤيتها من بعيد... كان هذا بسبب خطاياي. ولكن ما كان عليه أن يقول لي ذلك، فالحياة نفسها تُعاش بالأعمال، والأمر الوحيد الذي يمكّن إحدانا من تحريك قدميها هو الأمل بأن ينقلوها عند الممات من مكان إلى آخر، ولكن عندما يغلقون أمامها باباً ولا تبقى مفتوحة إلا بوابة الجحيم، فخير لها لو

أنها لم تولد... إن السماء بالنسبة إلي يا خوان بريثيادو هي هنا، حيث أنا الآن.

ـ وروحك؟ أين تظنين أنها ذهبت؟

ـ لا بد أنها تهيم على الأرض مثل أرواح كثيرة أخرى، تبحث عن أحياء ليصلّوا من أجلها. ربما إنها تكرهني للمعاملة السيئة التي عاملتها بها، ولكن هذا لا يقلقني. لقد استرحت من عادتها الذميمة بالتأنيب. فقد كانت تملأ بالمرارة حتى القليل مما كنت آكله، وتجعل لياليّ لا تطاق وهي تملؤها بأفكار مقلقة عن صور لمحكومين بالعذاب الأبدي وأشياء من هذا القبيل. وعندما رقدت لأموتَ، رجتني أن أنهض وأتابع جرجرة الحياة، وكأنها ما تزال تنتظر معجزة ما تنظف خطاياي. لكنني لم أكبد نفسي ولو مشقة المحاولة، وقلت لها: «هنا انتهت الطريق. ما عادت لدي قوة للمزيد». وفتحت فمي لتخرج منه. ومضتْ. وأحسست بخيط الدم الذي كانت ترتبط به إلى قلبي وهو يسقط بين يديّ.

* * *

طرقوا على بابه، لكنه لم يرد. وسمع أنهم تابعوا الطرق على كل الأبواب، موقظين الناس. سمع ركض فولغور نحو البوابة الكبيرة. ـ وقد عرفه من خطواته ـ. توقف للحظة، وكأنه ينوي طرقها مرة أخرى. بعد ذلك تابع الركض.

همس أصوات. جرجرة خطوات متثاقلة كأنها محملة بشيء ثقيل. وضجة مبهمة.

أتى إلى ذاكرته موت أبيه، وكان قد حدث في فجر مثل هذا أيضاً، مع أن البوابة في ذلك الحين كانت مفتوحة، وكانت تعكس لوناً رمادياً من سماء صُنعت من رماد، سماء حزينة، كما كانت حينذاك. وامرأة تحبس

البكاء، وهي مستندة إلى الباب. أمّ نسي الكثير عنها ونسي ذلك مرات كثيرة، تقول له: «لقد قتلوا أباك!» بذلك الصوت المكسور، المفكك، والمتحد بخيط من القنب فقط.

لم يرغب مطلقاً في أن يعيش تلك الذكرى مرة أخرى لأنها تأتي له بذكريات أخرى، كما لو كان يمزق كيساً ممتلئاً ثم يريد وقف تدفق الحب. موت أبيه الذي جرّ ميتات أخرى وفي كل واحدة منها كانت دائماً صورة الوجه المقطع؛ عين مهشمة، تنظر انتقاماً إلى العين الأخرى. والأخرى والأخرى كذلك، إلى أن محاها من الذاكرة عندما لم يعد يتذكرها أحد.

ـ مددوه هنا! لا، ليس هكذا. يجب إدخاله ورأسه إلى الوراء. وأنت! ما الذي تنتظره؟

كل شيء بصوت خافت.

ـ وهو؟

ـ هو نائم. لا توقظوه. لا تحدثوا ضجة.

كان هو هناك، ضخماً، يتأمل عملية إدخال حزمة ملفوفة بأكياس قديمة، ومربوطة بأحزمة من خرق ممزقة وكأنهم قد كفنوها.

وسأل:

ـ من هذا؟

اقترب فولغور سيدانو منه وقال له:

ـ إنه ميغيل يا دون بيدرو.

فصرخ:

ـ ماذا فعلوا به؟

وانتظر أن يسمع: «لقد قتلوه». كان قد أعد غضبه، مُخرجاً كرات قاسية من الضغينة، لكنه سمع كلمات فولغور سيدانو الناعمة تقول له:

ـ لم يفعل به أحد شيئاً. لقد وجد الموت وحده.

كان ثمة فوانيس بترولية تضيء الليل.

ـ ... لقد قتله الحصان ـ هذا ما استطاع أن يقوله أحدهم.

وسدوه سريره، وقد ألقوا بالفرشة على الأرض، وتركوا الألواح الخشبية فقط، ومددوا عليها الجسد المتحلل من الأحزمة التي كانوا يربطونه بها. وضعوا له يديه على صدره وغطوا وجهه بقطعة قماش سوداء. «يبدو وكأنه أكبر مما كان»، هكذا قال فولغور سيدانو سراً.

بقي بيدرو بارامو دون أي تعبير على وجهه، مثل معتوه. ومن فوقه تتلاحق أفكاره وراء بعضها البعض دون أن يتمكن من جمعها. وفي النهاية قال:

ـ لقد بدأتُ أدفع. من الأفضل أن أبدأ باكراً، كي أنتهي سريعاً.

لم يشعر بحزن.

وعندما تحدث إلى الناس المجتمعين في الفناء ليشكرهم على مرافقته، شاقاً لصوته طريقاً بين عويل النساء، لم يقطع النَفَس ولا الكلمات. وبعد ذلك فقط سمع في تلك الليلة إكداف مهر ميغيل بارامو الأشقر. فأمر فولغور سيدانو:

ـ مر غداً بقتل هذا الحيوان حتى لا يتعذب أكثر.

ـ حسناً يا دون بيدرو. أفهم ذلك. لا بد أن المسكين يشعر بالأسى.

ـ وأنا أفهمه كذلك يا فولغور. وقل في طريقك لهؤلاء النسوة ألا يُثرن كل هذه الفضيحة، فهذا الضجيج كثير من أجل ميتي. لو أن الميت لهن، لما بكينه بكل هذه الرغبة.

* * *

سيتذكر الأب رينتيريا بعد سنوات عديدة تلك الليلة التي أرقته فيها قساوة سريره واضطر إلى الخروج. لقد كانت الليلة التي مات فيها ميغيل بارامو.

ذرع شوارع كومالا المقفرة، مُفزعاً بخطواته الكلاب التي تتشمم القمامة. وصل إلى النهر ووقف هناك ينظر في الماء الراكد ويرى انعكاس النجوم التي كانت تسقط من السماء. وبقي عدة ساعات يصارع أفكاره، ويلقي بها إلى مياه النهر السوداء.

فكر:

«بدأت المسألة عندما صعد بيدرو بارامو ليصبح كبيراً بعد أن كان شيئاً وضيعاً. كان ينمو مثل عشبة خبيثة. والأسوأ في هذا أنه حصل على كل شيء مني: «أُخَطّئ نفسي يا أبتاه بأنني نمت أمس مع بيدرو بارامو». «أخطئ نفسي يا أبتاه بأنني أنجبت ابناً من بيدرو بارامو». «بأنني أعرت ابنتي لبيدرو بارامو». وانتظرتُ دائماً أن يأتي هو ويُخطّئ نفسه بشيء، لكنه لم يفعل أبداً. وبعد ذلك أطال أذرع الشر بهذا الابن الذي أتاه. والذي اعترف به لسبب لا يعرفه إلا الله. وما أعرفه هو أنني أنا الذي وضعت في يديه هذه الأداة».

إنه يذكر جيداً اليوم الذي حمله إليه وهو حديث الولادة، وقال له:

ـ لقد ماتت أمه وهي تلده يا دون بيدرو. وقالت إنه منك. وها هو لك.

ولم يَرتَبْ بذلك، وقال فقط:

ـ لماذا لا تحتفظ به يا أبتاه؟ اجعل منه راهباً.

ـ لا أريد تحمل هذه المسؤولية بسبب الدم الذي في عروقه.

ـ وهل تظن فعلاً أن دمي هو دم خبيث؟

ـ في الحقيقة أجل يا دون بيدرو.

ـ سأثبت لك أن هذا ليس صحيحاً. دعه هنا. لدينا فائض ممن يتولون أمر العناية به.

ـ هذا ما فكرتُ فيه تماماً. فمعك لن ينقصه القوت على الأقل.

كان الوليد يتلوى حينئذ مثل ثعبان.

ـ داميانا! تولِ أمر هذا الشيء. إنه ابني.

ثم فتح الزجاجة:

ـ من أجل الميتة ومن أجلك سأشرب هذه الجرعة.

ـ ومن أجله؟

ـ ومن أجله أيضاً، ولم لا؟

ملأ كأساً أخرى وشربا كلاهما من أجل مستقبل ذلك المخلوق.

هكذا حدث الأمر.

بدأت العربات بالمرور متجهة إلى ميديا لونا. فانحنى متخفياً بين الأعشاب التي تحيط بالنهر. «ممن تختبئ»، سأل نفسه.

وسمع من يقول له:

ـ وداعاً يا أبتاه!

فانتصب عن الأرض وأجاب:

ـ وداعاً! وليباركك الرب.

كانت أنوار القرية تنطفئ. وملأ النهر مياهه بألوان مضيئة.

وسأله آخر من الذين في العربات:

ـ هل حان الفجر يا أبتاه؟

فأجاب:

ـ يجب أن يكون الوقت أكثر من الفجر بكثير.

ومضى باتجاه معاكس لاتجاههم وهو ينوي ألا يتوقف..

ـ إلى أين في هذا الوقت المبكر يا أبتاه؟

ـ أين المحتضر يا أبتاه؟

ـ هل مات أحد في كونتلا يا أبتاه؟

رغب لو يجيبهم: «أنا، أنا هو الميت». ولكنه اكتفى بالابتسام.

وعند خروجه من القرية عجل خطواته.

رجع في ساعة متأخرة من الصباح. وسألته ابنة أخيه، آنا:

ـ أين كنت يا عماه؟ أتت نساء كثيرات في طلبك. يـردن الاعـتراف لأن الجمعة الأولى غداً.

ـ فليرجعن في الليل.

بقي ساكناً لحظة، وهو جالس على مقعد في الممر، وقد ملأه التعب.

ـ كم هو رطب الهواء! أليس كذلك يا آنا؟

ـ الجو حار يا عماه.

ـ أنا لا أشعر به.

لم يشأ أن يفكر ولا بأي شكل في أنـه كـان في كونتـلا، حيـث اعـترف اعترافاً عاماً أمام السيد القسـيس، وأن هـذا، بـالرغم مـن توسـلاته، رفـض منحه المغفرة:

ـ هذا الرجل الذي لا تريد ذكر اسمه مزق كنيستك وأنت تساهلت معه. فما الذي يمكن انتظاره منك أيها الأب؟ مـا الـذي فعلتـه بقـوة اللّـه؟ أريـد إقناع نفسي بأنك طيب وأنك تتلقى هناك تقدير الجميع، إنمـا ليـس كافيـاً أن تكون طيباً. الخطيئة ليست طيبة. وللقضاء عليها يجب أن تكون قاسـياً وصارماً. أريد أن أصدق أنهم جميعاً مازالوا مؤمنـين، إنمـا لسـت أنـت مـن يحفظ لهم إيمانهم، إنهم يحتفظون به بسبب الخرافة والخوف. بل وأكـثر من ذلك، أريد أن أكون معك في الفقر الذي تعيشه وفي العمل والعناية الـتي تقوم بها كل يوم كواجب عليك. أعرف مدى صعوبة مهمتنا في هـذه القـرى الفقيرة حيث ينفوننا، إنما هذا بالذات هو ما يمنحني الحق لأقول لـك إنـه علينا ألا نضع أنفسنا في خدمة أفـراد معدوديـن، ممـن يقدمـون لـك القليـل مقابل روحك، فعندما تكون روحك رهن أيديهم، مـا الـذي تسـتطيع عملـه لتكون خيراً من أولئك الذين هم خير منك؟ لا أيهـا الأب، إن يـديّ ليسـتا على هذا المستوى من النظافة التي تكفي لأمنحك المغفرة. عليـك أن تبحـث عنها في مكان آخر.

ـ أتعني يا سيدي القسيس أنه علي أن أنصرف؟

ـ عليك أن تنصرف. فليس بإمكانك أن تستمر في تلقين القداسة للآخرين إذا كنت أنت نفسك خاطئاً.

ـ وإذا ما أقالوني من منصبي؟

ـ ربما تستحق ذلك. وهذا رهن بهم.

ـ أليس بإمكانك؟ ... مؤقتاً. فلنقل... عليّ أن أقدم الزيت المقدس... المناولة. وفي قريتي يموت الكثيرون يا سيدي القسيس.

ـ دع الذين يموتون يا أبتاه وسيحاكمهم الرب.

ـ لا فائدة إذن؟

وقال السيد قسيس كونتلا أن لا.

بعد ذلك تمشيا معاً في ممرات الخَوْرَنيّة، تحف بهما الأزهار. وجلسا تحت عريشة حيث كان العنب ينضج.

ـ إنها حامضة يا أبت ـ استبق السيد القسيس السؤال الذي كان سيوجهه إليه ـ إننا نحيا في أرض تعطي كل شيء بفضل العناية الإلهية، ولكن كل شيء تعطيه حامض. إننا محكومون بهذا.

ـ أنت محق يا سيدي القسيس. لقد حاولت غرس العنب هناك في كومالا. إنه لا يثمر. لا ينمو هناك إلا الريحان والبرتقال؛ برتقال حامض وريحان حامض. لقد نسيت طعم الأشياء الحلوة. هل تذكر الجوافة الصينية التي كانت في مدرستنا الإكليريكية؟ والدُرّاقن، وذاك اليوسفي الذي كان يكفي أن نضغط عليه فتنزع قشرته. لقد أحضرت معي بعض البذور، قليلاً منها، كيساً صغيراً... بعد ذلك فكرت أنه كان أفضل لو أني تركتها هناك حيث تنمو. إذ أنني أحضرتها لتموت.

ـ ومع هذا يقولون يا أبتاه أن أراضي كومالا طيبة. أمر مؤسف أن تكون كلها بيد رجل واحد. بيدرو بارامو لا يزال مالكها، أليس كذلك؟

ـ إنها مشيئة الرب.

ـ لا أظن أن مشيئة الرب تتدخل في هذه الحالة. ألا ترى ذلك أيضاً يا أبتاه؟

ـ لقد ارتبت في ذلك أحياناً، ولكنهم هناك يعترفون به.

ـ وهل أنت بين هؤلاء؟

ـ إنني رجل بائس مستعد للتذلل ما دمت أجد الدافع.

بعد ذلك ودعا بعضهما. فأمسك هو بيديّ القسيس وقبلهما. ومع ذلك، فإنه الآن هنا، وقد عاد إلى الواقع، لا يريد العودة للتفكير فيما جرى صباح هذا اليوم في كونتلا.

نهض واتجه نحو الباب.

ـ إلى أين أنت ذاهب يا عماه؟

ابنة أخيه آنا حاضرة إلى جانبه دائماً، وكأنها تبحث عن ظله لتدافع عن نفسها من الحياة.

ـ سأذهب لأتمشى قليلاً يا آنا. لأرى إن كنت أنفجر هكذا.

ـ أتشعر بالمرض؟

ـ ليس المرض يا آنا. إنني سيئ. رجل سيئ. هذا ما أشعر به.

ذهب إلى ميديا لونا وقدم التعازي إلى بيدرو بارامو. وسمع من جديد الاعتذارات عن الاتهامات التي وجهوها إلى ابنه. تركه يتحدث. فلا شيء ذو أهمية في النهاية. وبالمقابل، رفض الدعوة لتناول الطعام معه.

ـ لا أستطيع يا دون بيدرو، يجب أن أعود باكراً إلى الكنيسة لأن هناك جماعة كبيرة من النساء ينتظرن إلى جانب منصة الاعتراف. سأحضر في مناسبة أخرى.

عاد ماشياً، وبينما كان المساء يحل، دخل إلى الكنيسة، بالحالة التي جاء بها، معفراً بالغبار والبؤس. وجلس ليأخذ الاعترافات.

كانت أول المتقدمات هي العجوز دوروتيا، التي كانت هناك دائماً تنتظر أن يفتحوا أبواب الكنيسة.

شم رائحة الكحول تفوح منها.

ـ ماذا، هل أصبحت تسكرين؟ منذ متى؟

ـ لقد كنت في السهر بجانب جثمان ميغيل الصغير يا أبتاه. ومروا عليّ بالقرفة. لقد أعطوني شراباً كثيراً، حتى تحولت إلى مهرجة.

ـ لم تكوني في حياتك شيئاً آخر يا دوروتيا.

ـ لكنني أحمل معي الآن خطايا يا أبتاه. أحمل قدراً كبيراً منها.

كان قد قال لها في عدة مناسبات: «لا تعترفي يا دوروتيا، فأنت لا تأتين إلا لإضاعة وقتي. أنت ما عدت قادرة على اقتراف أية معصية، حتى ولو نويت عليها. دعي المجال للأخريات».

ـ إنها الحقيقة الآن يا أبتاه.

ـ قولي.

ـ بما أنني ما عدت قادرة على إلحاق أي ضرر به، فسأقول لك بأني أنا التي كانت تدبر الفتيات للمتوفى ميغيل بارامو.

الأب رينتيريا، الذي كان يفكر في منح نفسه فسحة للتأمل، بدا وكأنه خرج من أحلامه وسألها بدافع العادة تقريباً:

ـ منذ متى؟

ـ منذ صار رجلاً. مذ أصابته الحصبة.

ـ أعيدي عليّ ما قلته يا دوروتيا.

ـ أنا التي كانت تدبر الفتيات لميغيل الصغير.

ـ أكنت تأخذينهن إليه؟

ـ أحياناً، نعم. وفي أحيان أخرى كنت أتفق معهن على الموعد. ومع غيرهن كنت أعطيه الإشارة فقط. وحضرتك تعلم: الوقت الذي يكنّ فيه وحدهن ويستطيع فيه الإمساك بهن متهاونات.

ـ أكنّ كثيرات؟

لم يشأ قول ذلك، ولكن السؤال أفلت منه بفعل العادة.

ـ حتى أنني نسيت عددهن. كن كثيرات جداً.

ـ ماذا تريدين أن أفعل بك يا دوروتيا؟ احكمي أنت بنفسك. وانظري إن كنت تغفرين لنفسك.

ـ أنا لا أستطيع يا أبتاه. أما أنت فتستطيع. لهذا أتيت إليك.

ـ كم من المرات أتيتِ هنا لتطلبي مني أن أبعث بك إلى السماء عندما تموتين؟ كنت تودين أن تري إن كنت تجدين ابنك هناك، أليس كذلك يا دوروتيا؟ حسن إذن، لم يعد بإمكانك الذهاب إلى السماء. ولكن ليسامحك الرب.

ـ شكراً يا أبتاه.

ـ أجل. وأنا أيضاً أسامحك باسمه. يمكنك الذهاب.

ـ ألا تفرض عليّ أيّة كفارة؟

ـ لا تحتاجين إليها يا دوروتيا.

ـ شكراً يا أبتاه.

ـ الله معك.

طرق بأصابعه على نافذة منصة الاعتراف الصغيرة ليستدعي امرأة أخرى من تلك النساء. وبينما كان يسمع «أنا الخاطئة» مال رأسه وكأنه ما عاد قادراً على البقاء منتصباً. ثم جاء ذلك المد، تلك البلبة، الذوبان كما في ماء كثيف، ودوران الأضواء، وضياء النهار الذي يتفتت إلى حطام، وطعم الدم ذاك على اللسان. الـ «أنا الخاطئة» تسمع أكثر قوة، مكرورة، ثم تنتهي: «إلى أبد الآبدين، آمين»، «إلى أبد الآبدين، آمين،»، «إلى أبد...»

ـ اصمتي، منذ متى لم تعترفي؟

ـ منذ يومين يا أبتاه.

وهناك كان صوت آخر. وكأنه يحيط بمحنته. وفكر: «ما الذي تفعله هنا. استرح. امض لتستريح. إنك متعب جداً».

نهض عن منصة الاعتراف ومضى مباشرة إلى حجرة المقدسات. ودون أن يدير رأسه قال لأولئك الناس الذين كانوا ينتظرونه:

ـ جميع الذين يشعرون أنهم بلا خطيئة، يمكنهم المشاركة في قداس الغد.

وسمع وراءه همسة وحسب.

* * *

إنني مضجعة على السرير الذي ماتت عليه أمي منذ سنوات كثيرة، على الفرشة نفسها، تحت الدثار الصوفي الأسود نفسه الذي كنا نلتف به كلتانا لننام. كنت حينذاك أنام بجانبها، في مكان صغير كانت تفسحه لي تحت ذراعيها.

أظن أنني ما زلت أشعر بخفقات أنفاسها المتقطعة، بالاختلاجات والتنهدات التي كانت تهدل بها لنومي. أظن أنني أشعر بحزن لموتها.

لكن هذا زيف.

إنني هنا مستلقية، أفكر في ذلك الزمن لأنسى وحدتي. لأني لست مضطجعة لقضاء فترة قصيرة فقط. ولست على سرير أمي، وإنما في صندوق أسود مثل تلك التي تُستخدم لدفن الموتى. لأني ميتة.

أحس بالمكان الذي أنا فيه وأفكر...

أفكر بمتى كان ينضج الليمون. بريح شباط التي تهشم سوق السرخس، قبل أن ييبسها الإهمال، بأشجار الليمون الناضجة التي تملأ بأريجها الفناء القديم.

كانت الريح تنزل من الجبال في أصباح شباط. وتبقى الغيوم هناك في الأعلى منتظرة الزمن الطيب الذي يجعلها تنزل إلى الوادي، فتترك أثناء ذلك السماء الزرقاء خاوية، تترك الضوء يسقط على لعبة الريح التي تصنع دوائر على الأرض، مثيرة الغبار وضاربة فروع أشجار البرتقال.

وتضحك عصافير الدوري، تنقر الأوراق التي أسقطتها الريح وتضحك، تترك أجنحتها بين أشواك الأغصان وتلاحق الفراشات وتضحك. كانت هذه هي الفترة.

في شباط، عندما كانت الأصباح تمتلئ بالرياح، بعصافير الدوري والنور الأزرق. إنني أذكر.

في ذلك الحين ماتت أمي.

كان عليّ أن أصرخ، وكان على يديّ أن تتفتتا وهما تعتصران يأسهما. هكذا أردتِ أنتِ أن يكون الأمر. ولكن، ألم يكن سعيداً ذلك الصباح؟ فمن خلال الباب المفتوح يدخل الهواء، مهشماً طلائع العشب. وكان الشعر الزغبي قد بدأ ينمو على ساقيّ ما بين الأوردة، وكانت يداي ترتجفان دافئتين عند ملامسة نهديّ. كانت عصافير الدوري تلعب. والسنابل تتمايل في التلال. لقد أحزنني أنها لن تستطيع أن ترى بعد اليوم لعب الريح بين الياسمين؛ وأنها قد أطبقت عينيها عن ضوء النهارات. ولكن، لماذا سأبكي؟

أتذكرين يا خوستينا؟ صففتِ الكراسي على طول الممر لينتظر الناس القادمون دورهم لإلقاء نظرة الوداع عليها. وبقيتْ الكراسي خاوية. وأمي وحدها، بين الشمعدانات، وجهها شاحب وأسنانها بيضاء لا تكاد تظهر بين شفتيها البنفسجيتين المتصلبتين بدُكنة الموت. كانت رموشها قد خمدت؛ وخمد قلبها أيضاً. وكنا أنا وأنت هناك، نصلي صلوات لا تنتهي، دون أن تسمع هي شيئاً، ودون أن نسمع أنا وأنت شيئاً، فكل شيء ضائع في رئة الريح تحت جنح الليل. لقد كويت ثوبها الأسود، ونشيت ياقته ومعصميّ كميّه كي تبدو يداها جديدتين وهما متصالبتين على

صدرها الميت، صدرها الهرِم المحبب الذي نمتُ عليه في زمن مضى والـذي أعطاني الأكل، وخَفَقَ نابضاً ليهدل لأحلامي.

لم يأت أحد لرؤيتها. وكان هذا أفضـل. فـالموت لا يُـوزّع كمـا لـو كـان خيراً من الخيرات. ولا أحد يسعى بحثاً عن الأحزان.

قرعوا مطرقة الباب. فخرجتِ أنت. قلتُ لك:

ـ اذهبي أنت. فأنا أرى وجوه الناس غير واضحة المعالم. وابذلي جهدك كي يذهبوا. أيأتون من أجل النقود للصلوات الغريغورية؟ إنها لم تترك أيـة نقود. قولي لهم ذلك يا خوستينا. ألن تخرج من المطهر إذا لم يصلّوا لها هذه الصلوات؟ ومن هم حتى يقيموا العدالة يا خوستينا؟ أتقولين أنني مجنونـة؟ لا بأس.

وبقيت كراسيك خاوية إلى أن ذهبنـا لدفنهـا مـع أولئـك الرجـال المُستأجرين، الذين كانوا يتعرقون تحت ثقل غريب عنهم، بعيدين عن أي نوع من الحزن. أغلقوا الضريح برمل رطب، أنزلـوا الصنـدوق ببطء، بصبر مهنتهم، تحـت الهـواء الـذي ينعش جهدهم. كـانت عيونهـم بـاردة، لا مبالية. قالوا: «هذا كثير». وأنتِ دفعت لهم، كمـن يشـتري شيئاً. حللـت منديلك المبلل بالدموع، منديلك المعصور والمعصور من جديد والـذي تخبئـين فيه نقود الجنازة...

وعندما انصرفوا، ركعتِ في الموضـع الـذي يستقر فيـه وجههـا وقبّلـتِ التراب وكان يمكنـك أن تفتحـي ثقبـاً فيـه لـو لم أقـل لـك: «هيـا بنـا يـا خوستينا، إنها الآن في مكان آخر، وهذا الذي هنا ليس إلا شيئاً ميتاً».

ـ أأنت التي قلتِ كل هذا يا دوروتيا؟

ـ مَنْ، أنا؟ لقد غفوت لحظة. أما زالوا يرعبونك؟

ـ سمعت أحداً يتكلم. صوت امرأة. ظننت أنك أنتِ.

ـ صوت امرأة؟ وظننت أني أنا؟ لا بد أنها تلك التي تتحـدث وحدهـا. تلك التي في الضريح الكبير. دونيا سوزانيتا. إنها مدفونة هنا بجانبنا. لا بد أن الرطوبة وصلتها. وهي تتحرك في نومها.

ـ ومن تكون؟

ـ زوجة بيدرو بـارامو الأخـيرة. البعـض يقولـون إنهـا كـانت مجنونـة. وآخرون يقولون لا. والحقيقة أنها كانت تتكلم وحدها مذ كـانت علـى قيـد الحياة.

ـ لا بد أنها ماتت منذ زمن بعيد.

ـ آه، أجل! منذ زمن بعيد، وماذا سمعتها تقول؟

ـ شيئاً ما عن أمها.

ـ ولكن لم تكن لها أم...

ـ بهذا الشأن كانت تتكلم.

ـ ... أو على الأقل، لم تأتِ بها معها عندما جاءت. ولكن انتظر. إنـي أتذكر الآن أنها ولدت هنا. أجل، وماتت أمها بالتدرن السلي. كانت سيدة غريبة الأطوار، فقد كانت دائمة المرض ولا تزور أحداً.

ـ هذا ما قالته. إن أحداً لم يذهب لرؤية أمها عندما ماتت.

ـ عن أي زمن كانت تتكلم هذه؟ طبعاً لم يذهب أحـد إلى بيتهـا لمجـرد الخوف من العدوى بالسل. أتذكر الشقية هذا الأمر؟

كانت تتكلم عنه.

ـ عندما تسمعها مرة أخرى أخـبرني، فأنـا أحـب أن أعـرف مـا الـذي تقوله.

ـ أتسمعين؟ يبدو أنها ستقول شيئاً. ثمة همس يُسمع.

ـ لا، ليست هي. هذا آتٍ من مكان أبعد، من هذا الاتجاه الآخر. وهـو صوت رجل. ما يحدث لهؤلاء الموتى القدماء هو أنه ما أن تصلهـم الرطوبـة حتى يشرعوا في التحرك. ويستيقظون.

«السماء فسيحة. الرب كان معي هذه الليلـة. ولـو لم يكـن الأمـر كذلـك فمن يدري ما الذي كان سيحدث. لأن الوقت كان ليلاً عندما بُعثتُ...»

ـ أتسمعينه الآن أكثر وضوحاً؟

ـ أجل.

«... كان الدم في كل الأنحاء. وعندما نهضتُ ضربت بيدي الدم المنثور على الحجارة. وكان دمي. كان دمي. كثير من الدم. لكنني لم أكن ميتاً. أدركت ذلك. وعلمت أن دون بيدرو لم يكن ينوي قتلي، وإنما إخافتي فقط. أراد أن يستعلم إذا ما كنت موجوداً في «بيلمايو» منذ اثنتي عسرة سنة. يوم عيد سان كريستوبال. أثناء حفل زفاف. أي حفل زفاف؟ أي سان كريستوبال؟ كنت أتخبط بدمي وأسأله: «في أي زفاف يا دون بيدرو؟» لا، لا يا دون بيدرو، لم أكن هناك. ربما أكون قد مررت. إنما بالصدفة... لم يكن ينوي قتلي. لقد تركني أعرج كما ترون، وكسيحاً إن أردتم. لكنه لم يقتلني. يقولون إن إحدى عيني قد انحرفت منذ ذلك الحين، بسبب الصدمة الخبيثة. والحقيقة أني لم أعد رجلاً من يومها. السماء فسيحة. وليس هناك من يشك في ذلك».

ـ من يكون؟

ـ تعرّف. واحد من كثيرين. فقد تسبب بيدرو بارامو بميتات كثيرة بعد أن قتلوا أباه. ويقال بأنه قد أفنى تقريباً جميع من حضروا حفل الزفاف الذي كان دون لوقا بارامو سيكون عرّابه. ولم ينل دون لوقا إلا الازعاج، لأن الأمر على ما يبدو كان ضد إرادة العريس. وبما أنه لم يعرف أبداً من أين خرجت الطلقة التي أصابته، فإن بيدرو بارامو راح يقتل دون تمييز. حدث هذا هناك في بيلمايو، حيث كانت توجد عدة مزارع لم يبق منها أي أثر... انظر، يبدو أنها هي الآن. أنت من لك مسامع فتيّة، ركز انتباهك على ما تقول. ثم ارو لي ما تقوله.

ـ لا أفهم شيئاً منها. يبدو أنها لا تتكلم، وإنما تشكو فقط.

ـ ومم تشكو؟

ـ من يدري.

ـ يجب أن يكون هناك سبب. لا أحد يشكو من لا شيء. انصت جيداً.

ـ إنها تشكو ولا شيء سوى ذلك. ربما جعلها بيدرو بارامو تتألم.

ـ لا تظن ذلك. لقد كان يحبها. أكاد أقول أنه لم يحب امرأة في حياته مثلما أحبها. لقد سلموه إياها وهي مريضة وربما مجنونة. ولقد أحبها لدرجة أنه أمضى بقية سنوات حياته منهاراً على كرسي من الخيزران، ناظراً إلى الطريق الذي حملوها منه إلى المقبرة. لقد فقد الاهتمام بكل شيء. أخلى أراضيه وأمر بحرق الأمتعة. بعضهم قال إنه كان قد تعب، وقال آخرون لأن خيبة الأمل سيطرت عليه، والحقيقة أنه طرد الناس خارجاً وجلس على كرسيه الخيزراني، ووجهه إلى الطريق.

«ومنذ ذلك الحين أصبحت الأرض بوراً وخراباً. كان محزناً مرآها تمتلئ بالعلل مع البلاء الذي أغار عليها عندما تركوها وحدها. ومنذئذ حتى الآن استهلك الناس، وتفرق الرجال بحثاً عن «موارد» أخرى. أذكر أياماً امتلأت بها كومالا بـ «وداعاً»، وحتى أن الذهاب لوداع من يذهبون بدا لنا أمراً مفرحاً. فقد كانوا يذهبون وهم ينوون العودة. وكانوا يعهدون إلينا بمتاعهم وأسرهم. وبعد ذلك كان بعضهم يبعث بطلب أسرته مع أنه لا يطلب متاعه، وبدا بعد زمن وكأنهم قد نسوا القرية ونسونا، بل ونسوا متاعهم. أنا بقيت هنا لأنه ليس لدي مكان أذهب إليه. وبقي آخرون ينتظرون أن يموت بيدرو بارامو، فقد وعدهم، كما كانوا يقولون، بتوريثهم أملاكه. وعاش آخرون على هذا الأمل. ولكن السنوات كانت تنقضي وهو ما يزال حياً، في مكانه دائماً، مثل فزاعة عصافير أمام أراضي ميديا لونا.

«وعندما بقي له قليل ليموت أتت تلك الحروب المسماة «كريستيروس» وقضى الجيش على القلة المتبقية من الرجال. وكان ذلك عندما بدأتُ أموت جوعاً، ومنذئذ ما عدتُ أطلب شيئاً.

«وكل ذلك بسبب أفكار دون بيدرو، بسبب صراعات روحه. لا شيء إلا لأن زوجته، المدعوة سوزانيتا قد ماتت. لا بد أنك تصورت كم كان يحبها.»

فولغور سيدانو هو الذي قال له:

ـ أتدري من الذي يجوب هذه الأنحاء أيها السيد؟

ـ من؟

ـ بارتولومي سان خوان.

ـ وماذا؟

ـ هذا ما أسأله أنا. ما الذي أتى به؟

ـ ألم تبحث الموضوع؟

ـ لا. فهناك ما يستحق القول. إذ أنه لم يبحث عن بيت. لقد ذهب مباشرة إلى بيتك القديم. وهناك ترجل وأنزل حقائبه، وكأنك قد أجرته البيت مسبقاً، أو أنني رأيت فيه هذا اليقين.

ـ وما الذي تفعله أنت يا فولغور؟ ألا تحقق فيما يحدث؟ ألست موجوداً لعمل ذلك؟

ـ لقد تشوشتُ قليلاً بسبب هذا الذي قلته لك. لكنني سأستوضح الأمور غداً إذا رأيتَ ذلك ضرورياً.

ـ دع أمور الغد لي. فأنا سأتولاها. هل حضرا كلاهما.

ـ أجل، هو وزوجته. ولكن كيف عرفت ذلك؟

ـ أليست ابنته؟

ـ حسب الطريقة التي يعاملها بها يغلب الاعتقاد بأنها زوجته.

ـ اذهب إلى النوم يا فولغور.

ـ إذا كنت تسمح لي بذلك.

«لقد انتظرتُ عودتكِ ثلاثين سنة يا سوزانا. انتظرتُ إلى أن امتلكتُ كل شيء. ليس بعض الأشياء وحسب، وإنما كل ما يمكن الحصول عليه، بحيث لا تبقى لنا أية أمنية، ما عداك، ماعدا الرغبة فيكِ. كم من المرات دعوت أباك ليأتي ويعيش هنا من جديد قائلاً له إنني أحتاج إليه؟ لقد فعلت ذلك حتى بالخداع.

«عرضت عليه أن أعينه وكيلاً، وذلك من أجل أن أراكِ من جديد. وماذا أجابني؟ «لا يوجد جواب ــ هكذا كان يقول لي الرسول دائماً ــ. فالسيد دون بارتولومي يمزق رسائلك عندما أسلمه إياها». لكنني علمت من الرسول أنكِ قد تزوجتِ ثم علمت منذ قليل أنك أصبحت أرملة وأنك عدت لمرافقة أبيك مرة أخرى».

ثم الصمت.

ـ الرسول يذهب ويأتي ويعود دائماً ليقول لي:

ـ لم أجدهما يا دون بيدرو. قيل لي إنهما قد خرجا من ماسكوتا. والبعض يقول بأنهما ذهبا إلى هنا وآخرون يقولون إلى هناك.

ـ وأنا:

ـ لا تبخل في الإنفاق، ابحث عنهما. حتى ولو ابتلعتهما الأرض.

ـ إلى أن جاء يوماً وقال لي:

ـ لقد فتشت سلسلة الجبال كلها باحثاً عن الركن الذي يختبئ فيه بارتولومي سان خوان، إلى أن عثرت عليه، هناك، ضائعاً في أحد جحور الجبال، يعيش في كهف مصنوع من جذوع الأشجار، في المكان نفسه الذي توجد فيه مناجم الاندروميدا المهجورة.

«في ذلك الوقت كانت تهب رياح غريبة. كان يقال بأن هناك أناساً قد انتفضوا وهم يحملون السلاح. كانت تصلنا اشاعات. وهذا ما جعل أبوكِ يهرب إلى هنا. ليس من أجله، حسبما قال لي في رسائله، وإنما من أجل السلامة، أراد احضاركِ إلى مكان مأهول.

«شعرتُ بأن السماء تنفتح. وكان لدي الدافع لأجري نحوك. لاحاطتك بالفرح. للبكاء. وبكيتُ يا سوزانا عندما عرفت أنك عائدة أخيراً».

* * *

ـ هنالك قرى لها طعم التعاسة. يمكن معرفتها باستنشاق قليل من هوائها القديم والخدر، البائس والنحيل مثل كل شيء هرم. وهذه واحدة من تلك القرى يا سوزانا.

»كان بمقدوركِ هناك، من حيث جئت الآن، أن تتلهي على الأقل برؤية ولادة الأشياء: الغيوم والعصافير، الطحلب، أتذكرين؟ أما هنا فلن تشعري إلا بهذه الرائحة الصفراء والحامضة التي تقطر على ما يبدو من كل مكان. فهذه قرية تعسة، مطلية كلها بالتعاسة.

«لقد طلب منا أن نرجع. وقد أعارنا بيته. أعطانا كل ما قد نحتاجه. ولكن يجب ألا نكون له شاكرين. نحن بائسان لأننا هنا، لأنه لن يكون لنا أي خلاص هنا. قلبي يحدثني بذلك.

»أتدرين ما الذي طلبه مني بيدرو بارامو؟ لقد كنت أتصور بأن ما منحنا إياه لن يكون مجاناً، وكنت مستعداً لأن أدفع له بعملي، إذ علينا أن ندفع له بطريقة ما. شرحت له بالتفصيل كل ما يتعلق بالاندروميدا وبينت له أن ثمة إمكانيات في ذلك المنجم، إذا ما تم العمل فيه بصورة منهجية. أتدرين ماذا أجابني؟ «لا يهمني منجمك يا بارتولومي سان خوان. الشيء الوحيد الذي أريده منك هو ابنتك. إنها أفضل عمل عملته في حياتك».

»إنه يريدك أنت يا سوزانا. يقول إنك كنت تلعبين معه عندما كنتما طفلين وإنه يعرفك. بل إنكما استحممتما معاً في النهر وأنتما صغيران. أنا لم أعلم بذلك، لو أنني علمت به لكنت قتلتك ضرباً بالسوط.»

ـ لستُ أشك في ذلك.

ـ أأنت التي قلت: لست أشك في ذلك؟

ـ أنا قلتها.

ـ أنت مستعدة لمضاجعته إذن؟

ـ أجل يا بارتولومي.

ألا تعلمين أنه متزوج، وكانت له من قبل أعداد لا حصر لها من النساء؟

ـ أعرف يا بارتولومي.

ـ لا تقولي لي بارتولومي. أنا أبوك!

بارتولومي سان خوان، منجمي ميت. وسوزانا سان خوان، ابنة منجمي ميت في مناجم الاندروميدا. كان يرى الأمر بوضوح. «عليّ أن أذهب إلى هناك لأموت»، هكذا فكر. ثم قال:

ـ لقد قلتُ له إنك، رغم كونك أرملة، مازلتِ تعيشين مع زوجك، أو أنك تتصرفين هكذا على الأقل. لقد حاولت ثنيه عن عزمه، ولكن نظرته تصبح مرعبة عندما أكلمه. أما عندما يذكر اسمك، فإنه يغمض عينيه. إنه، على ما أرى، اللعنة الخالصة. هذا هو بيدرو بارامو.

ـ ومن أكون أنا؟

ـ أنت ابنتي، لي، ابنة بارتولومي سان خوان.

بدأت الأفكار تكر في ذهن سوزانا سان خوان، بطيئة في البداية، ثم توقفت لتنطلق بعد ذلك مسرعة بطريقة لم تتمكن معها إلا أن تقول: ـ ليس صحيحاً، ليس صحيحاً.

ـ هذا العالم يضغط على أحدنا من كل الجهات، ويُفرغ حفنات من غبارنا هنا وهناك، ويحللنا إلى فتات وكأنه يرش الأرض بدمنا. ما الذي فعلناه؟ لماذا تعفنت أرواحنا؟ لقد كانت أمكِ تقول إنه عندما يذهب كل شيء تبقى لنا رحمة الله. وأنت ترفضينها يا سوزانا. لماذا ترفضينني كأب لك؟ أأنت مجنونة؟

ـ ألم تكن تعرف ذلك؟

ـ أأنت مجنونة؟

ـ طبعاً يا بارتولومي. ألم تكن تعرف ؟

* * *

ـ أكنت تعرف يا فولغور أنها أجمل امرأة ظهرت على وجه الأرض؟ لقد وصلت بي الظنون إلى أني فقدتها إلى الأبد. أما الآن، فلست أرغب في فقدانها من جديد. أنت تفهمني يا فولغور؟ قل لأبيها أن يذهب ويواصل استغلال مناجمه. وهناك... يخيل إليّ أنه سيكون من السهل جعل هذا الكهل يختفي في تلك المناطق حيث لا يذهب أحد أبداً. ألا تظن ذلك؟

ـ ممكن.

ـ إننا نحتاج إلى حدوثه يا فولغور. يجب أن تصبح يتيمة. نحن مرغمون على الرأفة بأحد. ألا تعتقد ذلك؟

ـ لا أرى الأمر صعباً.

ـ هيا إذن يا فولغور، هيا.

ـ وإذا ما عرفتْ هي بالأمر؟

ـ ومن الذي سيخبرها؟ آه، قل لي، هنا نتفق نحن الاثنين، فمن الذي سيخبرها؟

ـ إنني متأكد أن لا أحد.

انزع هذه الـ«إنني متأكد أن». انزعها من تفكيرك منذ الآن وسترى كيف يسير كل شيء على ما يرام. تذكر العمل الذي وعد بانجازه في الاندروميدا. ابعث به إلى هناك ليتابع العمل. ستبقى هي هنا ونرعاها. هناك سيكون عمله وهنا بيته حيث يأتي ويشكر. قل له هذا يا فولغور.

ـ إنك تعجبني من جديد بطريقتك في العمل أيها السيد، كما لو أن حماسك يستعيد الشباب.

* * *

المطر يهطل على حقول وادي كومالا. مطر ناعم، غير مألوف في هذه الآراضي التي لا تعرف إلا الوابل الغزير. إنه يوم أحد. ومن ابانغو انحدر

الهنود حاملين عقودهم التي من زهر البابونج، وباقات اكليل الجبل والصعتر. لم يجلبو معهم أوكوتي(*) لأن الاوكوتي مبلل، ولا تراب البلوط لأنه مبلل أيضاً بالمطر الكثير. يفردون أعشابهم على الأرض، تحت قناطر البوابة، وينتظرون.

المطر يواصل الهطول فوق البرك المائية.

وتجري المياه أنهاراً بين الأثلام حيث تنمو الذرة. لم يأت الرجال اليوم إلى السوق، فهم مشغولون بشق القنوات ليخرج الماء من الأثلام بحثاً عن مجار أخرى دون أن يجرف معه أشتال الذرة الغضة. يمضون جماعات، غائصين في الأرض المغمورة بالماء، وتحت المطر، يفتتون برفوشهم كتل التراب الطرية، مثبتين أشتال الذرة بأيديهم وساعين لحمايتها حتى تنمو دون مشقة.

الهنود ينتظرون. يشعرون أن هذا اليوم يوم نحس. وربما لهذا السبب يرتجفون تحت «معاطفهم» القشية المبللة. لا يرتجفون من البرد، وإنما من الخوف. وينظرون إلى المطر المتقطع وإلى السماء التي لا تُفلت غيومها.

لا أحد يأتي. تبدو القرية وكأنها وحيدة. أوصتهم المرأة على قليل من خيوط الرفو وشيء من السكر، وإذا كان ممكناً وموجوداً، فمنخل لتصفية الأتولي(**). يصبح «المعطف» ثقيلاً على كواهلهم لابتلاله بالماء مع اقتراب الظهيرة. يتبادلون الحديث، يروون النكات وينفجرون بالضحك. البابونج يتلألأ وهو مبلل بالندى. يفكرون: «لو أننا أحضرنا معنا على الأقل عرَق سيزال(***)، لما كان مهماً. ولكن قلب نبتات السيزال صار بحراً من الماء. والخلاصة، ما باليد حيلة».

(*) اكواتي: نوع من الصنوبريات المكسيكية.

(**) الأتولي: مشروب مكسيكي يُقطر من الذرة.

(***) عرق سيزال: مشروب مكسيكي رخيص، يقطره فقراء الفلاحين من نبات السيزال البري.

أتت خوستينا دياث متدثرة بمشمع مطري، عبر الشارع المستقيم القادم من ميديا لونا، كانت تدور حول دفقات المزاريب التي ترتطم فائرة بالأرصفة. رسمت شارة الصليب وتابعت سيرها لدى مرورها أمام بوابة الكنيسة الكبيرة. دخلت تحت القنطرة. التفت الهنود ليروها. ورأت نظرتهم جميعاً وكأنهم يتفحصونها. توقفت أمام البائع الأول، واشترت منه أوراق اكليل الجبل بعشرة سنتافو، ورجعت تلاحقها نظرات ذاك الحشد من الهنود.

وعندما اتخذت طريقها إلى ميديا لونا من جديد قالت:

ـ كم صار غالياً كل شيء في هذا الزمن. هذه الباقة البائسة من اكليل الجبل بعشرة سنتافو. إنها لا تكفي حتى لنشر الرائحة.

رفع الهنود بضاعتهم عندما بدأ الظلام يخيم. وولجوا تحت المطر يحملون أثقالهم على ظهورهم، دخلوا إلى الكنيسة ليصلوا للسيدة العذراء، وتركوا لها باقة من الصعتر قرباناً. ثم توجهوا نحو ابانغو، من حيث أتوا. «هناك سيكون يوم آخر»، قالوا. وفي الطريق كانوا يروون النكات وينفجرون بالضحك.

دخلت خوستينا دياث إلى مخدع سوزانا سان خوان ووضعت باقة اكليل الجبل على الرف. كانت الستائر المسدلة تمنع دخول الضوء، وهكذا لم تكن ترى في تلك الظلمة إلا الظلال، تخمنها فقط. افترضت أن سوزانا سان خوان نائمة. هي تتمنى دوماً أن تكون نائمة. شعرت أن الأمر كذلك وفرحت. لكنها سمعت حينئذ زفرة بعيدة كانها خارجة من أحد أركان تلك الحجرة المظلمة.

ـ خوستينا! ـ قيل لها.

التفتت برأسها. لم ترَ أحداً، لكنها أحست بيدٍ على كتفها وأنفاس في أذنيها. وصوت سريّ يقول: «انصرفي من هنا يا خوستينا. اجمعي أمتعتك وانصرفي. لم نعد بحاجة إليك».

ـ إنها بحاجة إليّ. إنها مريضة وتحتاج إليّ.

ـ لم تعد كذلك يا خوستينا. أنا سأبقى هنا لأرعاها.

ـ أهذا أنت يا دون بارتولومي؟ ــ ولم تنتظر الإجابة. أطلقت تلك الصرخة التي وصلت إلى جميع الرجال والنساء العائدين من الحقول وجعلتهم يقولون: «يبدو أنها صرخة إنسانية، لكنها لا تبدو صادرة عن أي كائن بشري».

المطر يمتص الضجيج. فهو ما يزال مسموعاً رغم كل شيء، جاعلاً من قطراته بَرَداً، مُشرِّجاً خيط الحياة.

ـ ماذا أصابك يا خوستينا؟ لماذا تصرخين؟ ـ سألت سوزانا سان خوان.

ـ لم أصرخ يا سوزانا. لا بد أنك كنت تحلمين.

ـ لقد قلت لك من قبل اني لا أحلم أبداً. أنت لا تكنين لي اعتباراً. إنني كثيرة الأرق. أنت لم تطرحي القط خارجاً في الليل، وهو لم يدعني أنام.

ـ لقد نام معي، بين ساقي. كان بردانـاً وأبقيته في فراشي بدافع الشفقة، لكنه لم يُحدث أي ضجة.

ـ لا، لم يُحدث ضجة. لقد أمضى الليل بالطواف فقط، قافزاً من قدمي إلى رأسي وهو يموء بصوت خافت كما لو كان جائعاً.

ـ لقد أطعمته جيداً وهو لم يبتعد عني طول الليل. إنك تحلمين بالأكاذيب مرة أخرى ياسوزانا.

ـ أقول لك أنه أمضى الليل يُفزعني بقفزاته. وحتى لو كان قطك حنوناً جداً، فأنا لا أريده عندما أكون نائمة.

ـ إنك ترين رؤى يا سوزانا. هذا هو ما يحدث. عندما يأتي بيدرو بارامو سأقول له إنني ما عدت أتحملك. سأقول له إني ذاهبة. ولن أعدم أناساً طيبين يقدمون لي عملاً. فليس الجميع مهوسون مثلك، وليسوا يعذبون إحدانا مثلما تفعلين. غداً سأذهب وآخذ القط معي فتبقين مطمئنة.

ـ لن تذهبي من هنا يا خوستينا الملعونة المذمومة. لن تذهبي إلى أي مكان. لأنك لن تجدي أبداً من يحبك مثلي.

ـ لا ، لن أذهب يا سوزانا. لن أذهب. أنت تعرفين جيداً أنني هنا لأرعاك. ليس مهماً أن تجعليني أجدف ، سأرعاك دوماً.

لقد رعتها منذ ولدت. حملتها بين ذراعيها. علمتها المشي. علمتها كيف تخطو تلك الخطوات التي كانت تبدو لها أبدية. ورأت نمو فمها وعينيها «كأنهما من الحلوى». «حلوى نعناع زرقاء. صفراء وزرقاء. خضراء وزرقاء. ممزوجة بالنعناع وأعشاب الطيب». كانت تعض لها ساقيها. وتلهيها بإرضاعها من ثدييها اللذين لا يحتويان شيئاً، واللذين كانا مثل لعبة ، وتقول لها : «العبي ، العبي بلعبتك الصغيرة هذه». كانت قد سمّنتها وجعلتها أعضاء بيّنة المعالم.

هناك في الخارج يُسمع صوت سقوط المطر على أوراق الموز ، ويحس المرء بأن الماء يغلي فوق الماء الراكد على الأرض.

كانت شراشف الفراش باردة من الرطوبة. المزاريب تنسكب مكونة زبداً ، وقد أتعبها العمل طول النهار ، طول الليل ، طول النهار. الماء ما زال يجري ، فائراً في فقاعات لا تهدأ.

* * *

كان الوقت منتصف الليل ، وكانت جلبة الماء هناك في الخارج تطفئ جميع الأصوات. نهضت سوزانا سان خوان بتمهل. عدّلت من وضع جسدها ببطء ثم ابتعدت عن السرير. وهناك ، في قدميها ، كان الثقل مرة أخرى ، يسير على حافة جسدها ، محاولاً العثور على وجهها.

سألت قائلة :

ـ أهذا أنت يا بارتولومي؟

وخيل إليها أنها تسمع صرير الباب ، مثلما يحدث عندما يدخل أحد أو يخرج. وبعد ذلك المطر فقط ، متقطعاً ، بارداً ، متدحرجاً على أوراق الموز ، فائراً في غليانه الخاص.

لقد نامت ولم تستيقظ إلى أن سطع الضوءُ على القرميد الأحمر، الناضح بالندى وسط الصباح الرمادي ليوم جديد. صاحت:

ـ خوستينا!

فظهرت هذه في الحال، وكأنها كانت هناك، وهي تلف جسدها بالحاف.

ـ ماذا تريدين يا سوزانا؟

ـ القط. لقد جاء مرة أخرى.

ـ يالك من بائسة يا سوزانا.

مالت على صدرها، احتضنتها، إلى أن استطاعت هي رفع ذلك الرأس وسألتها:

ـ لماذا تبكين؟ سأقول لبيدرو بارامو أنك طيبة معي، لن أحكي له شيئاً عن الرعب الذي يسببه لي قطكِ. لا تكوني هكذا يا خوستينا.

ـ لقد مات أبوك يا سوزانا. مات الليلة الماضية، وقد جاؤوا اليوم ليقولوا إنه لا يمكن عمل شيء، وإنهم قد دفنوه، وإنهم لم يستطيعوا إحضاره إلى هنا لأن الطريق بعيدة جداً. لقد أصبحتِ وحيدة يا سوزانا.

ـ كان هو إذن ـ ثم ابتسمتْ ـ أتيتَ لوداعي ـ، قالت ذلك وابتسمتْ.

* * *

قبل ذلك بسنوات عديدة، عندما كانت طفلة، قال لها هو: «انزلي يا سوزانا، وأخبريني ماذا ترين».

كانت معلقة بذلك الحبل الذي كان يؤذي خاصرتها، ويدمي كفيها، لكنها لا تريد إفلاته: كان كالخيط الوحيد الذي يربطها بالعالم الخارجي.

ـ لا أرى شيئاً يا بابا.

ـ ابحثي جيداً يا سوزانا. حاولي أن تجدي شيئاً.

وأضاء لها بمصباحه.

ـ لا أرى شيئاً يا بابا.

ـ سأنزلك أكثر. عندما تصبحين على الأرض أخبريني.

كانت قد دخلت من فجوة صغيرة بين الألـواح. وسارت فـوق أخشـاب متعفنة، قديمة، مشققة وممتلئة بتراب لزج.

ـ انزلي أكثر يا سوزانا، وستجدين ما أقوله لك.

ونزلـت كمـا في أرجوحـة، تتـأرجح في الأعمـاق، وقدماهـا تهـتزان «في اللاأجد أين أضع قدمي».

ـ إلى أسفل أكثر يا سوزانا. إلى أسفل. أخبريني إن كنت ترين شيئاً.

وعندما وجدت هناك ما تستند إليه، وقفت صامتة. لأن الخوف جعلهـا بكماء. المصباح يدور ويمر الضوء عرضاً بجانبها. والصرخة الآتيـة مـن فـوق تهزها:

ـ أعطني ما هو عندك يا سوزانا!

فأمسكت بالجمجمة بـين يديهـا، وعندمـا غمرهـا ضـوء المصبـاح تمامـاً أفلتتها. وقالت:

ـ إنها جمجمة ميت.

ـ يجب أن تجدي شيئاً آخر بجانبها. أعطني كل ما تجدين.

كانت الجثة مفككة إلى عظام طويلة. وكان الفك مفتتاً كالسكر، أخـذت تناوله العظام قطعة بعد قطعـة حتـى وصلـت إلى أصـابع القدمـين، فناولتـه إياها سُلامى بعد سُـلامى. وفي البـدء الجمجمـة، تلـك الكـرة المكـورة الـتي تفتتت بين يديها.

ـ ابحثي عن شيء آخر يا سوزانا. نقـود. قطـع مسـتديرة مـن الذهـب. ابحثي عنها يا سوزانا.

عندئذ لم تعد هي تعـرف شـيئاً عـن حالهـا إلا بعـد أيـام عديـدة وسـط الجليد، أمام نظرات أبيها المفعمة بالجليد.

ولهذا ضحكتْ الآن:

ـ عرفتُ أنك أنتَ يا بارتولومي.

وكان على المسكينة خوستينا، التي كانت تبكي فوق قلبها، أن تنهض حين رأت أنها تضحك وأن ضحكها قد تحول إلى قهقهة.

كان المطر يتابع الهطول في الخارج. وكان الهنود قد انصرفوا. كان يوم الاثنين ووادي كومالا ما يزال مغمورا بماء المطر.

* * *

استمرت الرياح تعصف خلال كل هذه الأيام. تلك الرياح التي حملت معها المطر. كان المطر قد مضى، ولكن الريح بقيت. نبتات الذرة نشرت أوراقها ورقدت فوق الأثلام لتحتمي من الريح. كانت ريحاً عابرة في النهار، تحني الأعشاب وتجعل قرميد الأسطحة يصر، لكنها تئّن في الليل، تئّن أنيناً طويلاً. وتمر سحابات من الغيوم بصمت في السماء وكأنها تمضي ماسحة الأرض.

تسمع سوزانا سان خوان قرع الريح على النافذة المغلقة. إنها مضطجعة وذراعاها وراء رأسها، تفكر، تسمع جلبة الليل، لأن الليل يذهب ويأتي مسحوباً بهبات الريح التي لا تهدأ. ثم التوقف المفاجئ.

لقد انفتح الباب. وأطفأت هبة هواء المصباح. رأت الظلمة وتوقفت حينئذ عن التفكير. إنها تحس بهمسات خافتة، ثم تسمع على الفور ضربات قلبها وهو ينبض نبضات غير متوافقة. ومن خلال رموشها المطبقة يُرى لهب الضوء.

لا تفتح عينيها. الشعر منسدل على وجهها. ويُشعل الضوء قطرات عرق على شفتيها. تسأل:

ـ أهذا أنتَ يا أبتاه؟

ـ أنا أبوك يا ابنتي.

تفتح عينيها قليلاً. وترى كما لو أن ظلاً فوق السقف يجتاز شعرها، ورأسه فوق وجهها. والصورة المطموسه هنا في المقدمة، وراء مطر رموشها. وترى ضوءاً مبهماً، ضوءاً في موضع القلب، له شكل قلب صغير ينبض بلهب متقطع. «إن قلبك يموت حزناً ـ فكرتْ ـ أعرف أنك آت لتقول لي إن فلورنثيو قد مات، ولكنني أعرف هذا. لا تغتم من أجل الآخرين، لا تقلق من أجلي. إن لدي ألمي المخفي في مكان آمن. لا تترك قلبك ينطفئ».

اعتدلت بجسدها وجرجرته إلى حيث كان الأب رينتيريا.

ـ دعني أواسيك بغمي! ـ قالت وهي تحمي لهب الشمعة بيديها.

تركها الأب رينتيريا تقترب منه، نظر إليها وهي تحيط بيديها الشمعة المشتعلة ثم تلصق وجهها بالفتيلة المحترقة، حتى اضطرته رائحة اللحم المحترق على هزها وإطفائها بنفخة واحدة.

عندئذ عاد الظلام يخيم وهرعت هي لتختبئ تحت شراشف فراشها. قال لها الأب رينتيريا:

لقد أتيت لأشجعك يا ابنتي.

فأجابته:

ـ وداعاً إذن يا أبتاه. لا تعد. لستُ بحاجة إليك.

وسمعتْ بينما هو يبتعد وقع الخطوات التي تثير فيها دائماً إحساساً بالبرد، بالقشعريرة والخوف.

ـ لماذا تأتي لرؤيتي، إذا كنت ميتاً؟

أغلق الأب رينتيريا الباب وخرج إلى هواء الليل.

وكانت الريح ماتزال تعصف.

* * *

وصل رجل يدعونه التارتامودو(*) إلى ميديا لونا وسأل عن بيدرو بارامو.

ـ ولماذا تريده؟

ـ أريد التحدث مـ.. مـ.. معه.

ـ ليس موجوداً.

ـ قل له، عنـ.. عنـ.. عندما يعود، إنـ.. إنني آت من ط.. طرف دون فولغور.

ـ سأذهب للبحث عنه، ولكن عليك أن تنتظر بضع ساعات.

ـ قل له، إن الأ.. الأمر مستـ.. مستعجل.

ـ سأقول له.

انتظر الرجل الذي يدعونه التارتامودو فوق الحصان. وبعد لحظة وقف أمامه بيدرو بارامو الذي لم يكن قد رآه من قبل:

ـ ما وراءك؟

ـ يجـ.. يجب أن أتكلم مباشرة مـ..مع السيد.

ـ أنا هو. ماذا تريد؟

ـ لاشـ.. لاشيء سوى هذا. لقـ..لقد قتلوا دون فولغور سيـ.. سيدانو. أنا كنت أرا.. أرافقه. كنا قد ذهبنا إلى نا.. ناحية «المزابل» لنـ.. لنستقصي عن سبب شح الماء. وكنا نسير على هذا الأساس عنـ.. عندما رأينا عصبة من الرجال يخـ.. يخرجون للقائنا. ومن بين ذلك الحـ.. الحشد برز صوت يقول: «أنا أعـ.. أعرف هذا. إنه وكيل ميـ.. ميديا لونا».

«لم يهـ.. يهتموا بي أنا. أما دو.. دون فولغور، فأمروه بالنزول عـَـ.. عن البهيمة. قالوا له إنـ.. إنهم ثوار. وإنهم آتـ.. آتون إلى أراضي حضرتك. قالوا لدون فولغور: «اجـ.. اجرِ! امضِ وقل لسيـ.. لسيدك إننا سنلتقي هناك!» فانـ.. فانطلق يركض خائفاً. ليس سريعاً بسبب ثِـ.. ثقل

(*) التارتامودو: تعني بالاسبانية «المتلعثم».

وزنه، لكنه ركض. وقد قتـ.. قتلوه وهو ير.. يركض. مات وإحـ.. وإحـدى ساقيه في الأ.. الأعلى والأخرى إلى أسفل.

«أنا لم أتـ.. أتحرك حينـ.. حينئذٍ. انتظرت قدوم الليـ.. الليل وها أنـا هنا لأخبرك بما حـ.. حدث.»

ـ وماذا تنتظر؟ لماذا لا تتحرك؟ امض وقـل لهـؤلاء إنـي هنـا لأقـابلهم، فليأتوا للتحدث معي. ولكن قم قبل ذلك بجولة في «كونسغراثيون». أتعـرف التيلكواتـي؟ سـتجده هنـاك. قـل لـه إنـني بحاجـة إليـه. وأخـبر هـؤلاء الأشخاص أني أنتظرهم عندما يتاح لهم الوقت. أي نوع من الثوار هم؟

ـ لست أدري. لقد سـ.. سموا أنفسهم هكذا.

ـ قل للتيلكواتي إني أحتاج إليه وبأقصى سرعة.

ـ هذا ما سأفعله أيـ.. أيها السيد.

عاد بيدرو بارامو للاعتصام في مكتبه. كان يشعر بأنه عجوز ومثقل. ولم يكن يهمه فولغور، فهو في نهاية المطاف «أقرب إلى الأخرى منه إلى هـذه». وكان قد منح من ذاته كل ما عليه أن يمنح، ومع أنه كـان خدومـاً، إلا أن لكل إنسان قدره. وفكر: «يا للتيلكواتات التي سيتلقاها هؤلاء الحمقى علـى كل حال».

كان يفكر أكثر بسوزانا سان خوان، المعتكفة دائماً في حجرتهـا، لتنـام. وعندما لاتكون نائمة، فإنها كالنائمة. لقد أمضى الليلة الماضيـة وهـو يقـف مستنداً إلى الجدار، يراقب من خلال ضوء المصباح الشـاحب جسـد سـوزانا المتقلب، وجهها الناضح عرقاً، يديها اللتين تهزان الشراشـف، وتعتصـران الوسادة حتى الانهيار.

مذ أحضرها لتعيش هنا لم يعرف من الليـالي الـتي أمضاهـا بجانبهـا إلا ليالي الألم هذه، ليالي القلق الذي لا ينتهي. وكان يتساءل متى سينتهي كـل هذا.

كان ينتظر. إذ لا يمكن لشيء أن يستمر طويلاً، لا يمكن لأية ذكرى مهما كانت ملحة ألا تنطفئ.

لو أنه يعرف على الأقل ما الذي يتلفها من الداخل، ما الذي يجعلها تتمرغ في الأرق، وكأنه يمزقها حتى الشلل.

كان يظن أنه يعرفها. وحتى لو لم يكن الأمر كذلك، أليس كافياً أن يعرف أنها المخلوقة الأثيرة لديه أكثر من كل ما على الأرض؟ وإنها تنفعه كذلك ـ وهو الأهم ـ في الانصراف من هذه الحياة وهو نشوان بتلك الصورة التي ستمحو كل ما عداها من الذكريات.

ولكن ما هو عالم سوزانا سان خوان؟ لقد كان هذا الأمر من الأمور التي لم يتوصل بيدرو بارامو إلى معرفتها أبداً.

* * *

«كان جسدي يحس بالراحة على حرارة الرمال. كانت عيناي مغمضتين، وذراعاي مفتوحتين، وساقاي مشرعتين لهواء البحر. وكان البحر قبالتي، بعيداً، لا يكاد يترك بقايا زبد عند قدمي حين تتراجع أمواجه...»

ـ إنها هي التي تتكلم الآن يا خوان بريثيادو. لا تنس أن تخبرني بما تقوله.

«... كان الوقت باكراً. والبحر يندفع وينخفض في أمواج متوالية. ينتزع نفسه من زبده ويعود، نظيفاً، بمياهه الخضراء. في موجات صامتة.

«لا أعرف الاستحمام في البحر إلا وأنا عارية ـ قلت له. ولحق بي في اليوم الأول، وهو عارٍ أيضاً. كان فوسفورياً وهو يخرج من البحر. لم تكن هناك نوارس؛ لم تكن هناك سوى تلك الطيور التي يسمونها «المناقير القبيحة»، التي تهمهم وتشخر ثم تختفي عندما تطلع الشمس. لحق بي في اليوم الأول وجلس وحيداً، رغم أني كنت هناك.

« ـ إنك تبدين مثل «منقار قبيح»، مثل واحد آخر بين هذه الطيور كلها ـ قال لي ـ. إنك تعجبينني أكثر في الليل، عندما نكون معاً على الوسادة نفسها، تحت الشراشف، في الظلام.

«ومضى.

«رجعتُ أنا. كنت أرجع دائماً. البحر يبلل كعبيّ ويمضي، يبلل ركبتيّ، فخذيّ، يحيط خاصرتي بذراعه اللينة، يلتف فوق نهديّ، يعانق عنقي، يضغط كتفيّ. عندئذ أغطس فيه بكاملي. أسلم نفسي إليه في خفقهِ القوي. في تملكه الرقيق، دون أن يترك جزءاً مني.

« ـ أحب الاستحمام في البحر. ـ قلتُ له.

«لكنه لا يفهم ذلك.

«وفي اليوم التالي كنت في البحر من جديد، أتطهر. أسلم نفسي لأمواجه».

* * *

كان المساء يميل إلى اللون البنيٍ عندما ظهر الرجال. كانوا يتنكبون البنادق. وكانوا قرابة عشرين رجلاً. دعاهم بيدرو بارامو إلى العشاء. فجلسوا إلى المائدة دون أن ينزعوا قبعاتهم وانتظروا صامتين. سُمعوا فقط وهم يرشفون الشوكولاتة عندما قدموا لهم الشوكولاتة، وهم يمضغون قرص عجة بعد آخر عندما قدموا لهم عجة اللوبياء.

كان بيدرو بارامو يتأملهم. لم تكن وجوههم معروفة لديه. ووراءه تماماً، في الظل، كان التيلكواتي ينتظر.

وعندما رأى أنهم انتهوا من الطعام قال لهم:

ـ ماذا أستطيع أن أقدم لكم أيضاً أيها السادة؟

فسأله أحدهم وكان يهوّي بيده:

ـ هل أنت مالك كل هذا؟

لكن آخر قاطعه قائلاً:

ـ أنا من يتكلم هنا!

وعاد بيدرو بارامو يسأل:

ـ حسن. ماذا يمكنني أن أقدم لكم؟

ـ لقد انتفضنا وحملنا السلاح كما ترى.

ـ و؟

ـ وهذا هو كل شيء. أيبدو لك قليلاً؟

ـ ولكن لماذا فعلتم ذلك؟

ـ لأن آخرين فعلوه أيضاً. ألم تعلم؟ انتظر بعض الوقت ريثما تصلنا تعليمات وعندئذ سنستفسر لك عن السبب. سنرجع عما قريب إلى هنا.

فقال آخر:

ـ أنا أعرف السبب. وإذا أردت فسأخبرك. لقد تمردنا ضد الحكومة وضدكم لأننا سئمنا تحكمكم بنا. الحكومة لأنها سافلة، وأنتم لأنكم لستم إلا جماعة من الأوغاد الشرهين واللصوص المترهلين بالدهن. ولن أقول شيئاً عن السيدة الحكومة، لأننا سنقول لها بالرصاص كل مانريد قوله.

سأل بيدرو بارامو:

ـ كم تحتاجون للقيام بثورتكم؟ فربما أستطيع مساعدتكم.

ـ السيد هنا يقول قولاً حسناً يا بيرسيفيرانثيو. ما كان عليك أن تُفلت لسانك هكذا. نحن بحاجة لثري يقف إلى جانبنا ليمدنا، ولحسن الحظ أن السيد حاضر هنا. قل لي أنت يا كاسيلدو، كم تُقدر أننا نحتاج؟

ـ فليعطنا ما تريد نيته الطيبة إعطاءنا إياه.

ـ هذا «لا يعطي ماء حتى لديك آلام المسيح». فلننتهز فرصة وجودنا هنا لنأخذ منه حتى تلك الذرة التي تملأ حوصلته الخنزيرة.

ـ اهدأ يا بيرسيفيرانثيو. يمكن تحقيق الأمور بصورة أفضل بالحسنى. هيا بنا نتفق. تكلم أنت يا كاسيلدو.

ـ إنني أقول، وبعد الحسابات، إن عشرين ألف بيزو لن تكون سيئة للبدء، ما رأيكم؟ ومن يدري الآن إذا ما كان هذا السيد يرى أن المبلغ قليل.. بما أن لديه فائض من الرغبة لمساعدتنا، لنضع إذن خمسين ألفاً. موافقون؟

فقال لهم بيدرو بارامو:

ـ سأعطيكم مئة ألف بيزو. كم عددكم؟

ـ إننا ثلاثمئة.

ـ حسن. وسأعيركم ثلاثمئة رجل آخر لتوسعوا صفوف فرقتكم. بعد أسبوع سيكون الرجال والمال تحت تصرفكم. المال أهديكم إياه، أما الرجل فأعيركم إياهم فقط. وعندما تسرحونهم ابعثوا بهم إلى هنا. هل هذا مناسب؟

ـ وكيف لا.

ـ إلى اللقاء إذن بعد ثمانية أيام أيها السادة. وأنا سعيد جداً بمعرفتكم.

ـ أجل. ـ قال له آخرهم وهو يخرج ـ تذكر أنك إن لم تف بوعدك، فستسمع عن بيرسيفيرانثيو، وهذا هو اسمي.

ووعده بيدرو بارامو مصافحاً إياه باليد.

* * *

ـ من تظنه زعيم هؤلاء؟ ـ سأل بيدرو بارامو التيلكواتي.

ـ أظن أنه ذو الكرش، ذاك الذي كان في الوسط والذي لم يرفع عينيه. شيء يحدثني أنه هو... قلما أخطئ يا دون بيدرو.

ـ لا يا داماسيو، الزعيم هو أنت. أم أنك لا تود الالتحاق بالثورة؟

ـ ولكن، لقد فاتني الأمر. رغم ميلي إلى الصخب.

ـ ها أنت ترى إذن ماهي القضية، وهكـذا فـأنت لم تعـد تحتـاج حتـى لنصائحي. اجمع ثلاثمئة شاب ممن تثق بهم والتحق بهؤلاء المتمردين. قـل لهم إنك تحضر لهم الرجال الذين وعدتهم بهم. وأنت تعرف كيف تتصرف بالباقي.

ـ وماذا أقول لهم عن المال؟ هل أسلمهم إياه أيضاً؟

ـ سأعطيك عشرة بيزوات لكل نفر. إنها تكفي للنفقـات الطارئـة. وقـل لهم إن الباقي محفوظ هنا تحت تصرفهـم. لـن يناسـبك حمـل مبلـغ كبـير كهذا وأنت في مهمات مثل هذه. وبين قوسين: هل تعجبـك مزرعـة بويرتـا دي بيدرا؟ حسن، إنها لك منذ الآن. ستحمل معـك ملاحظـة إلى المحـامي خيراردو تروخييو، في كومالا، وهناك سينقل الملكية إلى اسمك. ما قولك يـا داماسيو؟

ـ هذا أمر لا يمكن السؤال فيه أيها السيد. مع أنني بهذا وبدونه سأفعل كل ما تطلبه لمجرد الإعجاب. وكأنك لا تعرفني. على أية حـال، أشـكرك. هكذا سيكون لدى امرأتي ما تنشغل به بينما أنا ألعب.

ـ وفي طريقك إلى هناك، اسحب معك بضع بقـرات. فمـا تحتاجـه تلـك المزرعة هو الحركة.

ـ أليس مهماً لو كانت من ذوات السنام؟

ـ اختر منها ما تريد، والعدد الذي تستطيع زوجتك رعايتـه. ولنعـد إلى قضيتنا: حاول ألا تبتعد كثيراً عن أراضي، فإذا ما أتى آخرون، سـيجدون أن الميدان مشغول. وتعـال لمقابلتي كلمـا اسـتطعت أو كلمـا اسـتجد لديـك شيء.

ـ سنلتقي أيها السيد.

* * *

ـ ما الذي تقوله يا خوان بريثيادو؟

ـ تقول إنها كانت تخبئ قدميها بين ساقيه. وإن قدميها المتجمدتين كالأحجار الباردة كانتا تتدفآن هناك كما لو أنهما في فرن ينضج الخبز فيه. تقول إنه كان يعض قدميها قائلاً لها إنهما مثل خبز ناضج في الفرن. وإنها كانت تنام مستكينة، ملتصقة به، تائهة في اللاشيء وهي تحس أن لحمها يتشقق، أنه ينفتح مثل ثلم تشقه سكة حارقة، ثم دافئة، ثم لذيذة. بينما هو يرتطم بلحمها الطري، ويزيد، ويزيد أكثر، حتى التأوه. لكن موته آلمها كثيراً. هذا ما تقوله.

ـ من تعني؟

ـ شخص مات قبلها بكل تأكيد.

ـ ولكن، من يمكن أن يكون؟

ـ لست أدري. تقول إنه في الليلة التي تأخر فيها بالمجيء أحست أنه أتى في وقت متأخر من الليل، ربما في الفجر. وقد لاحظت ذلك بصعوبة، إذ أن شيئاً أحاط بقدميها بعد أن كانتا وحيدتين وباردتين. وبدا وكأن أحداً قد أحاطهما بشيء ما وبعث فيهما الدفء. وعندما استيقظت وجدتهما ملفوفتين بأوراق جريدة كانت تقرأ فيها وهي تنتظره وتركتها تسقط على الأرض عندما لم تستطع تحمل النعاس. وإن قدميها كانتا ملفوفتين بالجريدة عندما جاؤوا ليقولوا لها إنه قد مات.

ـ لا بد أن الصندوق الذي دفنوها فيه قد تكسر، فأنا أسمع صوتاً مثل طقطقة ألواح خشب.

ـ أجل، وأنا اسمعه أيضاً.

* * *

لقد عادت الأحلام هذه الليلة أيضاً. لماذا هذا التذكر الملّح لكل تلك الأمور؟ ولماذا لا يكون الموت وحده دون هذه الموسيقى الرقيقة الآتية من الماضي؟

ـ لقد مات فلورنثيو يا سيدتي.

كم كان طويلاً ذلك الرجل! كم كان شامخاً! كان صوته قاسياً. جافاً مثل أكثر الأراضي جفافاً. وكانت هيئته غير واضحة المعالم، أم أن معالمها طُمست فيما بعد؟ كما لو أن المطر يفصل بينها وبينه وهو في وسط المطر. «ماذا قال؟ أقال فلورنثيو؟ عن أي فلورنثيو كان يتكلم؟ عن رجلي؟ آه! لماذا لم أبك حينئذ وأغرق في الدموع لأمسح كآبتي. رباه، أنت لست موجوداً! لقد طلبتك لحمايته. لتحفظه لي. هذا ما طلبته منك. ولكنك لا تهتم إلا بالأرواح. وما أريده أنا منه هو جسده. عارياً ودافئاً بالحب، يفور بالشهوات، يعصر ارتجافة نهديّ وذراعيّ. جسدي الشفاف غارقاً في جسده. جسدي الخفيف مستنداً ومسترسلاً على ذراعيه. ما الذي سأفعله الآن بشفتي دون فمه ليملأهما؟ ما الذي سأفعله الآن بشفتي المفجوعتين؟»

بينما سوزانا سان خوان تتقلب قلقة، كان بيدرو بارامو يقف بجانب الباب، يراقبها ويحصي ثواني ذلك الحلم الجديد الذي امتد طويلاً. كان زيت المصباح يطلق شرراً وكانت رعشة لهبه تتضاءل شيئاً فشيئاً. سينطفئ عما قريب.

لو أن ما بها هو ألم وليس هذه الأحلام التي لا تهدأ، هذه الأحلام المُنْهِكة التي لا تنتهي، لكان وجد لها عزاءاً. هكذا كان يفكر بيدرو بارامو، وبصره مركز على سوزانا سان خوان، متابعاً كل حركة من حركاتها. ما الذي سيحدث لو أنها انطفأت هي أيضاً عند انطفاء لهب ذلك الضوء الضعيف الذي يراه؟

بعد ذلك خرج وأغلق الباب دون اثارة ضجة. وانتزع هواء الليل النظيف في الخارج صورة سوزانا سان خوان من مخيلة بيدرو بارامو.

استيقظت قبيل الفجر بقليل. كانت تتعرق. ألقت أغطيتها الثقيلة على الأرض وتخلصت حتى من حرارة الشراشف. وعندئذ صار جسدها عارياً، يترطب بريح الفجر. تنهدت ثم غطت في النوم من جديد.

وهكذا وجدها الأب رينتيريا بعد عدة ساعات من ذلك، عارية ونائمة.

* * *

ـ أتعرف يا دون بيدرو أنهم قد ألحقوا الهزيمة بالتيلكواتي؟

ـ أعلم أنه كان هناك تبادل إطلاق رصاص في الليل، لأني سمعت الضجة، ولا أعرف شيئاً سوى ذلك. من الذي أخبرك بهذا يا خيراردو؟

ـ وصل بعض الجرحى إلى كومالا. وساعدتْ زوجتي في تضميدهم. قالوا إنهم من جماعة داماسيو، وإنهم فقدوا الكثير من القتلى. يبدو أنهم اصطدموا بجماعة أخرى تدعي «بيبيستاس».

ـ ياللعنة يا خيراردو! أرى أن أزماناً سيئة تأتينا. وماذا تفكر أن تفعل أنت؟

ـ سأذهب يا دون بيدرو إلى سايولا. وهناك سأستقر من جديد.

ـ إن لكم هذه الميزة أنتم معشر المحامين، لأنكم تستطيعون حمل ثروتكم إلى أي مكان، طالما لم يهشموا وجوهكم.

ـ لا تظن ذلك يا دون بيدرو، فالمشاكل تولد لنا دائماً. وفوق ذلك، من المؤلم ترك أناس مثلك، كما أننا سنفقد الاحترام الذي حظينا به. إننا نعيش محطمين عالمنا في كل لحظة، إذا كان التعبير مناسباً. أين تريدني أن أترك لك الأوراق؟

ـ لا تتركها. خذها معك. أو.. ألا تستطيع الاستمرار في تولي شؤوني هناك حيث أنت ذاهب؟

ـ أشكر ثقتك يا دون بيدرو. أشكرك بكل نزاهة. ولكنني أستميحك العذر لأن ذلك مستحيل. فبعض المخالفات... لنقل... اثباتات يجب ألا

يطلع عليها أحد سواك. يمكن استخدامها للضرر بك إذا ما وقعت في أيد أخرى. الأضمن أن تبقى هذه الوثائق بحوزتك.

ـ أحسنت القول يا خيراردو. دعها هنا. سأحرقها. فبالأوراق أو بدونها، من يستطيع مجادلتي بأملاكي؟

ـ لا أحد دون شك يا دون بيدرو. لا أحد. بعد إذنك.

ـ اللّه معك يا خيراردو.

ـ ماذا قلت حضرتك؟

ـ أقول ليكن اللّه معك.

خرج المجاز خيراردو تروخييو متمهلاً. كان مُسناً، ولكن ليس إلى الحد الذي يضطره إلى أن يخطو خطوات قصيرة كهذه، وبلا رغبة هكذا. الحقيقة أنه كان يأمل بالحصول على تعويض. لقد خدم دون لوقا، ليرحمه اللّه، والد دون بيدرو، وبعده خدم دون بيدرو، ثم بعد ذلك ميغيل، ابن دون بيدرو. والحقيقة أنه كان ينتظر تعويضاً. مكافأة كبيرة وقيمة. وكان قد قال لزوجته:

ـ سأذهب لأودع دون بيدرو. أعلم أنه سيُنعم عليّ. وأستطيع القول أننا سنستقر بصورة لائقة في سايولا بالمال الذي سيعطينني إياه، وسنعيش بقية أيامنا في بحبوحة.

ولكن، لماذا توجد دائماً بعض الشكوك لدى النساء؟ أيتلقين تنبهيات من السماء أم ماذا؟ فهي لم تكن تشعر بأنه سيحصل على شيء:

ـ عليك أن تعمل كثيراً هناك في سايولا لتستطيع رفع رأسك. فلن تحصل على أي شيء من هنا.

ـ ولماذا تقولين هذا؟

ـ لأني أعرفه.

تابع المشي باتجاه الباب، متيقظاً لأي نداء: «هيه، خيراردو! لم أفكر فيك بسبب مشاغلي. لكنني مدين لك بخدمات لا تقدر بمال. اقبل هذا المبلغ. إنه هدية متواضعة».

لكن النداء لم يأت. اجتاز الباب وفك الحبل الذي كان حصانه مربوطـاً به إلى العارضة الخشبية. امتطى السرج ومضى، محاولاً عدم الابتعاد كثـيراً حتى يسمع إذا ما نادوه، سار باتجاه كومالا دون أن ينحرف عن الطريـق. وعندما رأى ميديـا لونـا تختفـي وراءه، فكـر: «سـيكون إذلالاً كبـيراً لي أن أطلب منه قرضاً».

* * *

ـ لقد رجعتُ إليك يا دون بيدرو، فأنا لست راضياً عن نفسي. وساستمر بكل سرور في حمل مسؤولية قضاياك.

قال ذلك وهو يجلس من جديد في مكتب بيدرو بارامو، حيث كان قبـل أقل من نصف ساعة.

ـ حسن يا خيراردو. ها هي الأوراق، مازالت حيث تركتها أنت.

ـ أتمنى عليك أيضاً... النفقات... لنقـل... دفعـة دنيـا عـن أتعـاب... شيئاً إضافياً، إذا رأيت ذلك مناسباً.

ـ خمسمئة؟

ـ ألا يمكن أن تكون أكثر، لنقل، أكثر قليلاً؟

ـ أيكفيك ألف؟

ـ وإذا كانت خمسة؟

ـ خمسة ماذا؟ خمسة آلاف بيزو؟ لا أملك هذا المبلغ. أنت تعلـم جيـداً أن كل شيء مُستَثمَر. أراض. مـواش. أنـت تعلم. خـذ ألفاً. لا أظـن أنـك تحتاج أكثر.

بقي ساهماً. رأسه متدل. يسمع رنين قطـع النقـود علـى طاولـة المكتـب حيث كان بيدرو بارامو يعدّ النقود. تذكـر دون لوقـا الـذي بقـي مدينـاً لـه بأتعابه، ودون بيدرو الذي بدأ معه حساباً جديداً. وابنــه ميغيـل: كـم مـن الحرج سبب له ذلك الفتى!

لقد أنقذه من السجن خمس عشرة مرة على أقل تقدير، إذا لم تكن أكثر من ذلك. وعملية القتل التي اقترفها ضد ذلك الرجل، مـاذا كـانت كنيتـه؟ رينتيريا، أجل. الميت المدعو رينتيريا، الذي وضعوا له مسدساً في يـده. كـم كان ميغيل الصغير خائفاً يومها، مع أن هذا الأمر صار يُضحكه فيمـا بعـد. هذه القضية وحدها، كم كـانت ستكلف دون بيـدرو لـو أن الأمـور سـارت حتى هناك، حتى القانون؟ ومسألة الاغتصابات، ماذا عنها؟ كم من المرات كان عليه أن يُخرج نقوداً من كيسه بالذات حتى ينسين ويلقين ترابـاً علـى القضية، وكـان يقـول لإحداهـن: «اضحكـي بعبـك، سـتحصلين علـى ابـن أشقر!»

ـ ها هو المبلغ يا خيراردو. حافظ عليه جيداً، لأنه لا يُبرعم.

ورد هو، الذي كان ما يزال غارقاً في تأملاته:

ـ أجل، وكذلك الموتى لا يبرعمون ـ ثم أضاف: ـ للأسف.

* * *

مازال هناك متسع من الوقت لبزوغ الفجر. كانت السـماء مليئـة بنجـوم كبيرة، منتفخة لطول هذا الليل. كان القمر قد طلع برهة ثـم مضـى. وكـان قمراً من تلك الأقمار الكئيبة التي لا ينظـر إليهـا أحـد، الـتي لا يهتـم بهـا أحد. بقي هذا القمر هناك برهة مشوهاً، دون أن يعطـي أي ضـوء، وبعدهـا مضى ليختبئ وراء الجبال.

في البعيد، يُسمع خوار الثيران وهو يضيع في الظلام.

قالت داميانا ثيسنيروس:

«هذه الحيوانات لا تنام أبداً. لا تنـام أبـداً. إنهـا مثـل الشـيطان الـذي يطـوف علـى الـدوام بحثـاً عـن أرواح ليحملهـا إلى الجحيـم». انقلبـت في فراشها، مقربة وجهها من الجدار. وعندئذ سمعت الضربات.

حبست أنفاسها وفتحت عينيها. وعادت لتسمع ثلاث ضربات جافة، وكأن أحداً يقرع الجدار بعقد أصابعه. ليس هنا بجوارها، وإنما أبعد، لكن على الجدار نفسه.

«نجني يا رب! إن لم تكن هذه هي طرقات القديس باسكوال بايلون الثلاث، وهو آت لينذر أحد أتقيائه بأن ساعة موته قد حانت».

وبما أنها لم تؤد الصلوات التسعاعية منذ زمن، بسبب مرضها بالروماتيزم، فإنها لم تقلق، لكن الخوف داخلها، وأكثر من الخوف، داخلها الفضول.

نهضت من السرير الصغير دون أن تثير ضجة وأطلت من النافذة.

كانت الحقول سوداء. ومع ذلك، فقد كانت تعرفه جيداً، ورأت جسد بيدرو بارامو الضخم وهو يتأرجح فوق نافذة الخادمة مرغريتا.

وقالت داميانا:

ـ آه من دون بيدرو! لن يتخلى عن عادة التسلق. ولكن ما لا أفهمه هو لماذا يحب عمل هذه الأشياء في الخفاء، فلو أنه أخبرني، لقلت لمرغريتا أن السيد يحتاجها هذه الليلة، ولما اضطر إلى تكبيد نفسه عناء النهوض من فراشه.

أغلقت النافذة عند سماعها خوار الثيران. ألقت بنفسها على السرير وغطت نفسها حتى أذنيها، ثم راحت تفكر بما يحدث الآن للخادمة مرغريتا.

واضطرت فيما بعد إلى خلع قميص نومها لأن الليل بدأ يصبح حاراً...

وسمعتْ:

ـ داميانا!

كانت ماتزال صبية حينئذ.

ـ افتحي الباب يا داميانا!

كان قلبها يرتجف وكأنه ضفدع يتواثب بين أضلاعها.

ـ لماذا أيها السيد؟

ـ افتحي يا داميانا!

ـ ولكنني نائمة ياسيدي.

بعد ذلك شعرت بدون بيدرو ينصرف عبر المرات الطويلة، وهو يضرب الأرض بنعليه تلك الضربات التي يحسن ضربها وهو هائج.

ولتحول دون استياءه، تركت الباب مغلقاً دون أن تقفله في الليلة التالية، بل أنها تعرت أيضاً، حتى لا يجد أية صعوبة.

لكن بيدرو بارامو لم يرجع إليها أبداً.

لهذا السبب، وبعد أن صارت الآن رئسة للخادمات في ميديا لونا، لأنها فرضت احترامها؛ وبعد أن صارت عجوزاً، فإنها مازالت تفكر في تلك الليلة عندما قال لها السيد: «افتحي الباب يا داميانا!»

ونامت مفكرة في كم هي سعيدة الخادمة مرغريتا في هذه الساعات.

ثم عادت تسمع طرقات أخرى، إنما على البوابة الكبيرة، وكأنما هناك من يضرب عليها بأعقاب البنادق.

فتحتْ النافذة مرة أخرى وأطلت على الليل. لم تر شيئاً، وإن بدت لها الأرض وكأنها ممتلئة بالفوران، مثلما كانت عندما هطل المطر وتغطت الأرض بالديدان. سمعت نقيق الضفادع، والزيزان، والليل الساكن بطقس آب. ثم عادت لتسمع أعقاب البنادق وهي تضرب الباب.

نثر مصباحٌ ضوءه على وجوه جماعة من الرجال ثم انطفأ.

قالت داميانا ثيسنيروس:

ـ إنها أمور لا تهمني. ـ وأغلقت النافذة.

ـ علمتُ أنهم قد هزموك يا داماسيو. لماذا سمحت بذلك؟

ـ لقد أخبروك خطأً أيها السيد. فأنا لم أصب بشيء. وجماعتي كاملة. إنني أُحضر معي هنا ستمئة رجل ومعهم بعض الأنصار. وكل ما جرى هو

أن بعض الرجال، ممن ملّوا البطالة، أخذوا يطلقون النار على فصيلة من حليقي الرؤوس، والنتيجة أنه كان هناك جيش كامل. إنهم بييستاس. ألا تعرفهم؟

ـ ومن أين خرج هؤلاء؟

ـ إنهم آتون من الشمال، مسوّين كل ما يجدونه في طريقهم. يبدو لي، حسب ما رأيت، أنهم يجوبون البلاد، متفحصين جميع الأراضي. إنهم أقوياء... وهذا لا يمكن لأحد إنكاره.

ـ ولماذا لا تتحد معهم؟ لقد قلت لك أن تنضم إلى من يكسب.

ـ إنني معهم.

ـ ولمَ تأتِ لمقابلتي إذن؟

ـ إننا بحاجة إلى المال أيها السيد. لقد سئمنا أكل اللحم. بل أننا لم نعد نرغب فيه. ولا أحد يريد أن يقرضنا. لهذا السبب أتينا، لكي تموننا ولا نجد أنفسنا مضطرين إلى سرقة شيء من أحد. لو أننا كنا بعيدين من هنا لما توانينا عن القيام "بغارة" على الجوار، ولكننا جميعنا متصاهرين هنا وضميرنا سيؤنبنا إذا ما سرقنا. نهايته، نحن نحتاج هذه النقود لنشتري ولو بعض عجة الذرة مع الشطة. لقد أُتخمنا من أكل اللحم.

ـ أتريد أن تطالبني الآن يا داماسيو؟

ـ ولا بأي شكل أيها السيد. إنني أحام عن الشبان، أما بالنسبة إلي، فأنا لا أهتم.

ـ لا بأس أن تتصدى من أجل جماعتك، ولكن احصل على ما تحتاجه من الآخرين. أنا أعطيتك. فاكتف بما أعطيتك إياه. وما سأقوله لك ليس نصيحة ولا أي شيء من هذا القبيل، ولكن ألم يخطر لك شن هجوم على كونتلا؟ ولماذا تظن أنك التحقت بالثورة؟ إذا كنت ستطلب صدقات فأنت متخلف، وسيكون من الخير لك أن تذهب إلى زوجتك وترعى دجاجاً. ألق بنفسك على إحدى الضياع! إذا كنت أنت تخاطر بجلدك، فأية شياطين تمنع الآخرين من دفع ما عليهم؟ إن كونتلا تغص بالأثرياء. انتزع منهم

شيئاً مما يملكون. أم أنهم يظنون أنك مربيتهم وأنك موجود لحماية مصالحهم؟ لا ياداماسيو. اجعلهم يرون أنك لا تلعب ولا تتسلى. وجه إليهم ضربة وسترى كيف أنك ستخرج بأموال من هذه المعمعة.

ـ على أية حال أيها السيد. أنا أحصل منك دوماً على شيء نافع.

ـ فلتنتفع إذن.

رأى بيدرو بارامو الرجال وهم يذهبون. وأحس أمامه باستعراض خبب الجياد السوداء، المندغمة بالليل، والعرق والغبار، واهتزاز الأرض. وعندما رأى حشرات الكوكويو(*) تعبر الفضاء بأضوائها من جديد، أدرك أن جميع الرجال قد انصرفوا، وأنه بقي وحيداً، مثل جذع راسخ بدأ يتفتت من داخله. فكر بسوزانا سان خوان. وفكر بالصبية التي لم يكد ينام معها إلا لحظة واحدة قبل قليل. ذلك الجسد المرتبك والمرتجف الذي بدا كأنه سيقذف قلبه من فمه. «يا قبضة من لحم»، قال لها. واحتضنها محاولاً تحويلها إلى لحم سوزانا سان خوان «المرأة التي ليست من هذا العالم».

* * *

مع بداية الفجر، يأخذ النهار بالدوران، بتمهل، وتكاد تُسمع مفصلات الأرض الصدئة وهي تدور، وتذبذب هذه الأرض الهرمة وهي تقلب ظلامها.

ـ أصحيح أن الليل مليء بالمعاصي يا خوستينا؟

ـ أجل يا سوزانا.

ـ وهل هذه حقيقة؟

ـ يجب أن تكون كذلك ياسوزانا.

ـ وماذا تظنين الحياة يا خوستينا، سوى أنها خطيئة؟ ألا تسمعين؟ ألا تسمعين الأرض كيف تصر؟

(*) الكوكويو: حشرات ينبعث منها ضوء براق في الليل.

ـ لا يا سوزانا، لا أستطيع سماع شيء. فحظي ليس كبيراً كحظك.

ـ ستذهلين. أقول لك ستذهلين لو سمعت ما أسمعه.

تابعت خوستينا ترتيب الحجرة. وأعادت مرة بعد أخرى تمرير المسحة على ألواح خشب الأرضية المبللة. نظفت ماء الزهرية، المكسورة. التقطت الزهور. ووضعت قطع الزجاج في السطل المملوء بالماء.

ـ كم من العصافير قتلت في حياتك يا خوستينا؟

ـ كثيراً يا سوزانا.

ـ ولم تشعري بالأسى؟

ـ بلى يا سوزانا.

ـ ما الذي تنتظرينه إذن لتموتي؟

ـ الموت يا سوزانا.

ـ إذا لم يكن ثمة شيء آخر سواه، فإنه سيأتي. لا تقلقي.

كانت سوزانا سان خوان مضطجعة فوق وسائدها. عيناها القلقتان تتطلعان إلى جميع الاتجاهات. ويداها فوق بطنها، تمسكان ببطنها مثل محارة واقية. كان ثمة أزيز خفيف يمرق مثل أجنحة فوق رأسها. وضجة البكرات في الناعورة. والهمس الذي يصدر عن الناس عندما يستيقظون.

ـ أتؤمنين بالجحيم يا خوستينا؟

ـ أجل يا سوزانا. وبالفردوس أيضاً.

ـ أنا أؤمن بالجحيم فقط. ـ قالت هذا، وأغمضت عينيها.

عندما خرجت خوستينا من الحجرة، كانت سوزانا سان خوان قد عادت إلى النوم. وكانت الشمس تقدح في الخارج. التقت في طريقها ببيدرو بارامو:

ـ كيف حال السيدة؟

ـ سيئة. ـ قالت له وهي تحني رأسها.

ـ أهي تشكو؟

ـ لا يا سيدي، ليست تشكو من شيء، لكنهم يقولون أن الموتى لا يشكون. لقد فقدنا جميعنا السيدة.

ـ ألم يحضر الأب رينتيريا لرؤيتها؟

ـ جاء في الليل وأخذ اعترافها. وكان مفترضاً أن يعطيها خبز القربان اليوم، لكنها لم تنل المغفرة دون شك، لأن الأب رينتيريا لم يأت لها بخبز المشاركة. قال إنه سيفعل ذلك في ساعة مبكرة. وها أنت ترى، الشمس صارت هنا ولم يأت بعد. لا بد أنها لم تنل المغفرة.

ـ مغفرة من؟

ـ مغفرة الرب يا سيدي.

ـ لا تكوني بلهاء يا خوستينا.

ـ مثلما تشاء يا سيدي.

فتح بيدرو بارامو الباب ووقف بجانبها، تاركاً شعاعاً من الضوء يسقط على سوزانا سان خوان. رأى عينيها مطبقتين بشدة مثلما تكونان عندما تشعر بألم شديد، وفمها مبلل ومفتوح قليلاً، ورأى الشراشف التي أزاحتها يدان غير واعيتين فأشهرت عري جسدها الذي أخذ يتلوى مرتعشاً.

اجتاز الفراغ الضيق الذي كان يفصله عن السرير وغطى الجسد العاري الذي يواصل التلوي مثل دودة تتشنج بعنف متزايد. دنا من أذنها وكلمها: «سوزانا!» وكرر ثانية: «سوزانا!».

فُتح الباب ودخل الأب رينتيريا بصمت وهو يحرك شفتيه باقتضاب.

ـ سأعطيك القربان الرباني يا بنيتي.

انتظر إلى أن رفعها بيدرو بارامو وأسندها إلى مسند السرير. مدت سوزانا سان خوان لسانها وهي شبه غافية وابتلعت قطعة الخبز المقدس. ثم قالت بعد ذلك: «لقد أمضينا فترة سعيدة يا فلورينثينو». ثم غرقت في لحد شراشفها من جديد.

* * *

ـ أترين تلك النافذة يا دونيا فاوستا، هناك في ميديا لونـا، حيـث كـان يبقى النور مضاء دائماً؟

ـ لا يا أنخيليس. لا أرى أية نافذة.

ـ لأنها غرقت الآن في الظلام. ألا يكون قد وقـع مكـروه في ميديـا لونـا؟ منذ ثلاث سنوات وهذه النافذة مضاءة، ليلـة بعـد ليلـة. والذيـن ذهبـوا إلى هناك يقولون إنها الحجرة التي تقطنها زوجة بيدرو بارامو، وهـي مجنونـة بائسـة تخشـى الظـلام. وانظـري: الآن انطفـأ النـور. ألا يكـون قـد حـدث مكروه؟

ـ ربما ماتت. كانت مريضة جداً. يقولون أنها ما كانت تعـرف النـاس، ويقولون أنها كانت تتكلم وحدها. لابد أن بيـدرو بـارامو قـد تحمـل عقابـاً جيداً بزواجه من هذه المرأة.

ـ يا للسيد دون بيدرو من مسكين.

ـ لا يا فاوستا. إنه يستحق ذلك، بل وأكثر منه.

ـ انظري، ما تزال النافذة مظلمة.

ـ دعك من هذه النافذة وهيا بنـا لننـام، فـالوقت متـأخر علينـا نحـن العجوزين لنسير في الشارع طليقتين.

وتبددت المرأتان اللتان خرجتا من الكنيسة قرابة الساعة الحادية عشـرة ليلاً، اختفتا تحت قناطر البوابة وهما تنظران إلى شـبح رجـل كـان يجتـاز الساحة متوجهاً إلى ميديا لونا.

ـ دونيا فاوسـتا، ألا تريـن أن السـيد الـذي يمضـى هنـاك هـو الدكتـور فالينثيا؟

ـ هكذا يبدو، مع أنني أصبحت ضعيفة البصر إلى حـد لا يمكنـني معـه التعرف عليه.

ـ تذكري أنه يرتدي دائماً سراويل بيضاء وجـاكيت سـوداء. أراهنـك أن مكروهاً قد حدث في ميديا لونا. وانظري إليه كيـف يمضـي مسـرعاً، وكـأن السرعة تجعله يطفو في الهواء.

ـ لولا أني غير متأكدة من أن أمراً خطيراً يحدث حقاً، لرغبت بالعودة إلى الأب رينتيريا لأقول له أن يقوم بجولة في تلك الأنحاء، حتى لا تموت هذه التعيسة دون اعتراف.

ـ لا تفكري بهذا يا أنخيليس. لا قدر الله. فبعد كل الذي عانته في هذا العالم، ليس هناك من يتمنى لها أن تغادر دون عون روحي، وأن تبقى وهي في الحياة الأخرى بائسة أيضاً. مع أن العارفين يقولون أن المجانين لا يحتاجون إلى الاعتراف، فهم طاهرو الذيل حتى ولو كانت أرواحهم دنسة. هذا يعلمه الله وحده... انظري، ها قد أضاؤوا النور من جديد في النافذة. عسى أن ينتهي كل شيء على خير. تصوري أن العمل الذي باشرنا به جميعنا هذه الأيام لإصلاح الكنيسة ولتبدو جميلة في أعياد الميلاد سيذهب هباء إذا ما مات أحد في ذلك البيت. سيعطل دون بيدرو احتفالنا في لحظة واحدة بالسلطة التي له.

ـ أنت يخطر لك دائماً ما هو أسوأ يا دونيا فاوستا. من الأفضل أن تفعلي مثلي: دعي كل شيء للعناية الإلهية. صلي صلاة «يا قديسة مريم» للعذراء وأنا متأكدة من أن شيئاً لن يحدث من اليوم إلى الغد. وبعد ذلك لتكن مشيئة الله. ثم لا بد أنها ليست سعيدة في هذه الحياة رغم كل شيء.

ـ صدقيني يا أنخيليس بأنك تعيدين لي الحماسة دائماً. سأذهب إلى النوم وأنا أحمل معي هذه الأفكار. يقولون أن أفكار الأحلام تمضي مباشرة إلى السماء. عسى أن تصل أفكاري إلى هذا العلو. إلى اللقاء غداً.

ـ إلى الغد يا فاوستا.

دخلت العجوزان من البوابة الوسطى إلى بيتيهما. وعاد الصمت ليغلق الليل فوق القرية.

* * *

ـ فمي مليء بالتراب.

ـ أجل يا أبتاه.

ـ لا تقولي «أجل يا أبتاه». رددي معي ما أقوله لك.

ـ وما الـذي ستقوله لي؟ هـل ستأخذ اعـترافي مـرة أخـرى؟ ولمـاذا مـرة أخرى؟

ـ لن يكون اعترافاً يا سوزانا. لقد أتيـت لأتبـادل معـك الحديـث فقـط. لأهيئك للموت.

ـ وهل سأموت الآن؟

ـ أجل يا بنيتي.

ـ لماذا لا تتركني بسلام إذن؟ أريد أن أستريح. لا بد أنهم كلفوك بإبعاد النعاس عني، بالبقاء معي هنا إلى أن يذهب عني النعاس. وماذا أفعل بعـد ذلك لأجده؟ لا يا أبتاه. أليس من الأفضل أن تذهب وتتركني هادئة؟

ـ سأدعك بسلام يا سوزانا. عندما ترددين الكلمات التي سـأقولها لـك، ستبدأين بالنوم. ستشعرين وكأنك تهدلين لنفسـك. وستنامين ولـن يوقظك أحد... لن تستيقظي بعدها أبداً.

ـ حسن يا أبتاه. سأفعل ما تقوله.

كان الأب رينتيريا يجلس على حافة السرير، ويداه على كتفـي سـوزانا سان خوان، وفمه يكاد يلتصق بأذنها كي لا يتكلم بصوت قوي، وهو يرتب خفية كل كلمة من كلماته: «فمي مليء بالتراب». ثم توقف. حاول أن يرى إن كانت شفتاها تتحركان. ورآهما تتمتمان، إنما دون أن يخرج منهمـا أي صوت.

«فمي مليء بكَ، بفمك. بشفتيك المشدودتين، الصلبتين اللتـين تقضمـان شفتيّ وتضغطان عليهما...»

توقفت هي أيضاً. نظرت بطرف عينها إلى الأب رينتيريا، فرأته بعيداً، كما لو أنه وراء زجاج قاتم. ثم عادت تسمع الصوت الدافئ في أذنها.

ـ أبتلعُ لعاباً زبدياً، أمضغ تراباً ممتلئـاً بـدود ينعقـد في حلقـي ويكشـط جدار الحلق... فمي ينهار متلوياً، ومثقوباً بالأسنان التي تخرمـة وتلتهمـه.

الأنف يصبح طرياً، وهلام العينين يذوب. وخصلات الشعر تشتعل في ومضة واحدة...

لقد أدهشه هدوء سوزانا سان خوان. تمنى لو أنه يحزر أفكارها ويرى معركة ذلك القلب لرفض الصور التي يحاول هو أن يزرعها بداخلها. نظر إلى عينيها وردت هي له النظرة. وبدا له وكأنه يرى شفتيها تغتصبان ابتسامة.

ـ بقي المزيد. رؤيا الله. النور الناعم لسمائه اللانهائية. نشيد ملائكة الشاروبيم وغناء ملائكة الساروفيم. وفرحة عيني الرب، والرؤيا الأخيرة والسريعة للمحكومين بالعذاب الأبدي. وليس هذا وحسب، بل كله متوافق مع ألم أرضي. رمم نخاع عظامنا المتحولة إلى نار، وعروق دمنا المتحولة إلى خيوط نارية، تجهلنا نقدم تعويضات ألم لا يطاق، ألم لا ينقص أبداً، ويستعر دائماً بغضب الرب.

«لقد ضمني بين ذراعيه. وقدم لي الحب.»

استعرض الأب رينتيريا الوجوه التي كانت حوله، تنتظر اللحظة الأخيرة. قريباً من الباب، كان يقف بيدرو بارامو مكتوف الذراعين، وإلى جانبه مباشرة الدكتور بالنثيا، وبجوارهما يقف سادة آخرون. وإلى الوراء قليلاً، في الظل، هناك حفنة من النساء اللواتي تأخر عليهن الوقت لاداء صلاة الموتى.

خطر له أن ينهض. وأن يعطي قطرات الزيت المقدس للمريضة ويقول: «لقد انتهيت». ولكن لا، لم يكن قد انتهى بعد. فهو لا يستطيع تسليم أسرار الكنيسة لامرأة دون أن يعرف مقدار توبتها.

داخلته الشكوك. ربما ليس لديها ما تندم عليه. وربما ليس لديه شيء يغفره لها. انحنى فوقها من جديد، وقال لها بصوت خافت وهو يهز كتفيه:

ـ ستذهبين للقاء الرب. وحكمه قاس على الخطأة.

ثم اقترب مرة أخرى من أذنها، لكنها هزت رأسها:

ـ هيا اذهب يا أبتاه! لا تعذب نفسك من أجلي. إني مطمئنة وأشعر بنعاس شديد.

سُمع نحيب واحدة من النساء المختفيات في الظل...

عندئذ بدت سوزانا سان خوان وكأنها قد استعادت الحياة. فنهضت في الفراش وقالت:

ـ اعملي معروفاً يا خوستينا بالذهاب للبكاء في مكان آخر!

وبعدها أحس أن رأسه قد انغرس في بطنها. حاول فصل البطن عن رأسه، أن يبعد جانباً ذلك البطن الذي يضغط على عينيه ويقطع أنفاسه. لكنه كان ينقلب أكثر فأكثر وكأنه يغرق في الليل.

* * *

ـ أنا. أنا رأيت سوزانا وهي تموت.

ـ ما الذي تقولينه يا دوروتيا؟

ـ ما قلته للتو.

* * *

استيقظ الناس في الفجر على قرع النواقيس. كان صباح يوم الثامن عشر من كانون الأول صباحاً رمادياً. ليس بارداً، وإنما رمادياً. بدأ القرع بصوت الناقوس الأكبر. ثم تبعته النواقيس الأخرى. ظن البعض أنه النداء للقداس الأكبر وبدؤوا بفتح أبوابهم، والأبواب التي لم تنفتح هي فقط حيث يسكن أناس ينتظرون مستيقظين حتى الفجر لتنبئهم دقات أجراس الفجر بأن الليل قد انتهى. لكن قرع النواقيس استمر أكثر مما يجب. ولم تعد تقرع نواقيس الكنيسة الكبرى وحسب، وإنما نواقيس كنيسة دم يسوع، وكنيسة الصليب الأخضر، وربما نواقيس الهيكل أيضاً. أتت الظهيرة وقرع النواقيس

لا يتوقف. ثم أتى الليل. واستمر قرع النواقيس طول النهار والليل، كل النواقيس، وكان صوتها يصبح أقوى فأقوى إلى أن تحول إلى نواح أصوات ضاجة. كان الرجال يصرخون ليسمعوا ما يريدون قوله. وكانوا يتساءلون: «ما الذي حدث؟».

بعد مرور ثلاثة أيام أصيبوا جميعهم بالصمم. وصار من المستحيل التحدث في ذلك الهدير الذي امتلأ به الهواء. لكن النواقيس استمرت، استمرت، وأصاب بعضها البلى. واستمرت تدق بصوت أجوف كصوت دن.

ـ لقد ماتت دونيا سوزانا.

ـ ماتت؟ من؟

ـ السيدة.

ـ زوجتك؟

ـ زوجة بيدرو بارامو.

بدأ يتوافد أناس من أماكن أخرى، وقد جذبهم قرع النواقيس المتواصل. كانوا يأتون من كونتلا وكأنهم قادمون إلى موسم حج. بل أتى آخرون من أماكن أبعد. من يدري من أين. وجاء سيرك أيضاً، معه بهلوانات وكراس طائرة. وقدِم موسيقيون. كانوا يقتربون متفرجين في البدء، وبعد هنيهة يستقر بهم المقام، وانتشرت هناك ألحان السريناد. وشيئاً فشيئاً تحول الأمر إلى عيد. وغصت كومالا بالناس، وبالمرح والصخب، مثلما يحدث في أيام المهرجان، عندما يصبح التقدم في القرية خطوة واحدة عملاً منهكاً.

توقف قرع الأجراس، لكن العيد استمر. لم تكن ثمة وسيلة لجعلهم يدركون أن القضية هي قضية حداد، أيام حداد. ولم يكن ثمة وسيلة لجعلهم ينصرفون، بل على العكس من ذلك، إذ استمر قدوم المزيد من الناس.

كانت ميديا لونا وحيدة، غارقة في الصمت. المسير فيها يتم بأقدام حافية، والكلام بصوت خافت. دفنوا سوزانا سان خوان ولم يعلم بذلك إلا قلة في كومالا. فهناك كان المهرجان. كانت تقام مصارعات الديكة، ويُسمع

صدح الموسيقى، وصرخات السكارى واليانصيب. وكان نور القرية يصل إلى هنا، فيبدو وكأنه هالة في سماء رمادية. تلك الأيام كانت أياماً رمادية وحزينة في ميديا لونا. لم يكن بيدرو بارامو يتكلم. لم يكن يخرج من حجرته. وأقسم أن ينتقم من كومالا:

ـ سأبقى مكتوف اليدين وستموت كومالا جوعاً.

وهكذا فعل.

* * *

واظب «التلكواتي» على المجيء:

ـ نحن الآن من أتباع كارانثا.

ـ هذا حسن.

ـ نقاتل الآن مع سيدي الجنرال اوبريغون.

ـ هذا حسن.

ـ لقد أقروا السلام هناك... ونحن الآن مسرحون.

ـ انتظر. لا تنزع سلاح جماعتك. فهذا لن يستمر طويلاً.

ـ لقد انتفض الأب رينتيريا بالسلاح. هل نكون معه أم ضده؟

ـ هذا أمر لا جدال فيه. قف إلى جانب الحكومة.

ـ لكننا غير نظاميين. إنهم يعتبروننا متمردين.

ـ انصرف لتستريح إذن.

ـ بعد التحليق الذي حلقته؟

ـ افعل إذن ما تشاء.

ـ سأذهب لأشد من أزر الأب . فأنا معجب بصرخة جماعته. وإضافة إلى ذلك، سأضمن خلاص روحي.

ـ افعل ما تشاء.

* * *

كان بيدرو بارامو يجلس على كرسي قديم، بجوار البوابة الكبرى لميديا لونا، قبل انقشاع آخر ظلال الليل بقليل. كان وحيداً، ربما منذ ثلاث ساعات. لم يعد ينام. لقد نسي النعاس والزمن: «إننا ننام قليلاً نحن الشيوخ، بل نكاد لاننام أبداً. في بعض الأحيان نغفو قليلاً، لكننا لا نتوقف عن التفكير. وهذا هو الشيء الوحيد الذي تبقى لي لأعمله». ثم أضاف بصوت عالٍ: «لا تتأخري كثيراً. لا تتأخري».

وتابع: «لقد مضيتِ منذ زمن بعيد يا سوزانا. وكان الضوء حينئذ مشابهاً لما هو عليه الآن. لم يكن بهذا اللون الأشقر الضارب إلى الحمرة، لكنه كان نفس الضوء البائس الذي بلا نور، محاطاً برداء الضباب الأبيض الذي يحيط به الآن، وكانت اللحظة نفسها. إنني هنا، بجانب البوابة، أراقب بزوغ الفجر وأنظر متى ستمضين، سالكة درب السماء، من حيث بدأت السماء تتفتح بالأنوار، تبتعدين، وتتلاشى ملامحك أكثر فأكثر بين ظلال الأرض.

«كانت المرة الأخيرة التي رأيتك فيها. كنت تحكين بجسدك أغصان الجنة الخضراء، وحملت في هوائك آخر أوراقها. ثم اختفيت. قلت لكِ «ارجعي يا سوزانا!».»

تابع بيدرو بارامو تحريك شفتيه، هامساً بكلمات. ثم أطبق فمه وفتح عينيه قليلاً، فانعكس فيهما ضوء الفجر الضعيف.

كان الفجر يبزغ.

* * *

في هذا الوقت بالذات، كانت دونيا إنيس، والدة غاماليل بيبيالاباندو تكنس الشارع أمام دكان ابنها عندما وصل أبونديو مارتينيث، ودخل من البوابة المغلقة. وجد غاماليل نائماً فوق الطاولة والقبعة تغطي وجهه حتى

لا يزعجه الذباب. كان عليه أن ينتظر طويلاً إلى أن يستيقظ. كان عليه أن ينتظر إلى أن تنتهي دونيا إنيس من كنس الشارع وتأتي لِتوخز أضلاع ابنها بعصا المكنسة وتقول له :

ـ ها قد جاءك زبون! انهض!

نهض غاماليل معكر المزاج وهو يزمجر. كانت عيناه حمراوين لطول السهر وكثرة مرافقة السكارى، والسكر معهم. وبعد أن جلس على الطاولة، شتم أمه، وشتم نفسه وشتم الحياة «التي لا تساوي أكثر من لعنة» شتائم لا نهاية لها. ثم أعاد وضع يديه بين ساقيه وعاد للنوم وهو ما يزال يتمتم باللعنات :

ـ ليس ذنبي إذا ما مضى السكارى طليقين في مثل هذه الساعة.

ـ يا لابني المسكين. اعذره يا أبونديو. لقد أمضى المسكين هذه الليلة وهو يلبي طلبات جماعة من الراحلين الذين أتلفوا الكؤوس. ما الذي جاء بك في مثل هذا الوقت المبكر؟

قالت له ذلك صارخة، لأن أبونديو كان أصمّ.

ـ لا شيء سوى زجاجة خمر أراني بحاجة إليها.

ـ هل عادت ريفوخيو تدوخك؟

ـ لقد ماتت أيها الأم بيبا. ماتت هذه الليلة بالذات، قرابة الساعة الحادية عشرة. مع أنني بعت حميري. لقد بعت الحمير لتشفى.

ـ لا أسمع ما تقوله! أم أنك لا تقول شيئاً؟ ماذا تقول؟

ـ أقول أنني أمضيت الليلة وأنا ساهر على الميتة، على ريفوخيو. لقد توقفتْ عن اللهاث هذه الليلة.

ـ لهذا إذن أحسست برائحة الموت. تصور أنني قلت لغاماليل: "أشم أن أحداً قد مات في القرية". لكنه لم يهتم لقولي، إذ كان مشغولاً مع المسافرين. لقد سكر المسكين. وأنت تعلم أنه عندما يكون مخموراً فإن كل

شيء يُضحكه ولا يهتم بأحد. ولكن ما الذي تقوله؟ هل أقمت وليمة للسهر على الميتة؟

ـ لا أيتها الأم بيبيا. ولهذا أريد الخمر، حتى أعالج أحزاني.

ـ أتريدها خمرة صافية؟

ـ أجل أيتها الأم بيبيا. حتى أسكر بسرعة أكبر. وأعطني إياها بسرعة لأني مستعجل.

ـ سأعطيك زجاجتين بثمن واحدة، هذا لك فقط. فاذهب وقل للميتة أني كنت أقدرها دائماً وقل لها أن تتذكرني عند وصولها إلى الفردوس.

ـ حاضر أيتها الأم بيبيا.

ـ قل لها ذلك قبل أن تبرد.

ـ سأقول لها. وأنا أعلم أنك ستصلين من أجلها. يكفي أن أقول لك أنها ماتت وهي نادمة لأنها لم تجد من يغيثها.

ـ ألم تأت لها بالأب رينتيريا؟

ـ ذهبتُ إليه. لكنهم أخبروني بأنه مضى إلى الجبل.

ـ أي جبل؟

ـ في هذه المجاهل. أنت تعلمين أنه قد انضم إلى الثورة.

ـ هو أيضاً إذن؟ يا لنا من بؤساء يا أبونديو.

ـ وماذا يهمنا كل هذا أيتها الأم بيبيا. إنه لا يؤخر ولا يقدم شيئاً بالنسبة إلينا. أعطني الزجاجة الأخرى. وبما أنك تريدين المداراة، فإن غاماليل نائم ولن يعرف.

ـ ولكن لا تنس أن تطلب من ريفوخيو أن تتوسل إلى الله من أجلي، فأنا بحاجة ماسة إلى ذلك.

ـ لا تعذبي روحك. سأقول لها بمجرد وصولي. بل وسأجعلها تعطني وعداً إذا اقتضى الأمر لكي تتخلصي من الغمّ.

ـ هذا، هذا هو بالضبط ما يجب أن تفعله. فأنت تعرف كيف هن النساء. يجب مطالبتهن بانجاز وعودهن في الحال.

وضع أبونديو مارتينيث عشرين سنتافو أخرى على الطاولة.

ـ أعطني الزجاجة الأخرى أيتها الأم بيبيا. وإذا كنتِ ستهدينني إياها، فهذا من فضائلك. والشيء الوحيد الذي أؤكده لك هو أنني سأذهب لأشربها إلى جوار الميتة، إلى جانب كوكاتي.

ـ اذهب إذن قبل أن يستيقظ ابني. لأن طباعه تسوء جداً عندما يستيقظ بعد السكر. اذهب سريعاً ولا تنس أن تنقل وصيتي إلى زوجتك.

خرج من الدكان وهو يعطس. لقد كانت الخمرة ناراً صافية، وبما أنهم كانوا قد قالوا له إن الخمرة تصعد إلى الرأس هكذا بسرعة أكبر، فإنه أخذ يرشف جرعة بعد أخرى، مدخلاً الهواء إلى فمه بالتهوية بطرف قميصه. حاول بعد ذلك أن يتجه مباشرة إلى بيته حيث كانت تنتظره جثة ريفوخيو، ولكنه انحرف عن الطريق وانطلق في الشارع صعوداً، فخرج من القرية من حيث قاده الطريق.

قال بيدرو بارامو منادياً:

ـ داميانا! تعالي وانظري ما الذي يريده هذا الرجل القادم على الطريق.

واصل أبونديو التقدم متعثراً وهو يحني رأسه ويسير أحياناً على أربع. كان يشعر بأن الأرض تميل، وأنها تدور به ثم تفلته، فيركض ليمسك بها، وعندما تصبح في يديه تعود لتفلت من جديد، إلى أن وصل أمام رجل يجلس بجوار بوابة. عندئذ توقف وقال:

ـ أعطوني صدقة لأدفن زوجتي الميتة.

كانت داميانا ثيسنيروس تصلي: «نجنا يا رب من مكائد الشرير». وتصوب يديها نحوه وهي تقاطعهما على شكل صليب.

رأى أبونديو مارتينيث المرأة ذات العينين القلقتين وهي تضع ذلك الصليب أمامه، فارتعش. ظن أن الشيطان قد لحق به إلى هنا، فالتفت متوقعاً رؤية كائن الشر وراءه. وعندما لم ير أحداً، كرر القول:

ـ إنني آت لطلب مساعدة من أجل دفن زوجتي.

كانت الشمس تأتيه من الخلف. هذه الشمس المشرقة لتوها، والتي تكاد تكون باردة، ومشوهة بغبار الأرض.

اختفى وجه بيدرو بارامو تحت الدثار وكأنه يختبئ من النور، بينما كانت صرخات داميانا تسمع وهي تخرج بتواتر أكبر، مخترقة الحقول: «إنهم يقتلون دون بيدرو!»

كان أبونديو مارتينيث يسمع تلك المرأة وهي تصرخ. ولم يكن يدري ما يفعل ليضع حداً لتلك الصرخات. إذ لم يكن يستطيع جمع شتات أفكاره. أحس وكأن صرخات هذه العجوز تُسمع بعيداً جداً. وربما أن زوجته نفسها تسمعها، لأن الصرخات كانت تثقب أذنيه، مع أنه لم يكن يفهم ما تقوله. فكر بزوجته الممددة على السرير، وحيدة، هناك في فناء بيته، حيث أخرجها هو كي تستكين ولا تتعفن سريعاً. زوجته كوكا التي كانت تنام معه حتى يوم أمس وهي حية تماماً، تتلوى مثل مهرة، وتعضه، وتحك أنفها بأنفه. زوجته التي منحته ذلك الابن الذي مات بُعيد مولده، قالت إن ذلك حدث لأنها ليست مؤهلة: فاللامة، والبرداء، والحمى ولست أدري أية أمراض أخرى كانت تصيب زوجته، حسبما قال الطبيب الذي جاء لفحصها في اللحظة الأخيرة، عندما اضطر لبيع حميره كي يأتي به إلى هنا، وذلك بسبب الأجر المرتفع الذي طلبه. ولم يفد في شيء... فكوكا هناك الآن تتحمل رطوبة الليل، وهي مغمضة العينين، دون أن تتمكن من رؤية بزوغ الفجر، ولا هذه الشمس أو أية شمس أخرى.

قال:

ـ ساعدوني. قدموا لي شيئاً.

ولكنه لم يسمع هو نفسه ذلك. فصرخات تلك المرأة أصابته بالصمم.

تحركت بضع نقاط سوداء على طريق كومالا. وتحولت تلك النقاط فجأة إلى رجال أصبحوا بعد ذلك هنا، قريباً منه. توقفت داميانا ثيسنيروس عن الصراخ. وفكت الصليب. لقد هوت الآن وفتحت فمها كأنها تتثاءب.

حملها الرجال الذين حضروا عن الأرض وأدخلوها إلى البيت. ثم سالوا:

ـ ألم يصبك أي مكروه أيها السيد؟

بان وجه بيدرو بارامو، الذي حرك رأسه فقط.

نزعوا السلاح من أبونديو، وكان لا يزال يحمل السكين الملوثة بالدم في يده، وقالوا له:

ـ تعال معنا. لقد أوقعت نفسك في ورطة كبيرة.

فتبعهم.

وقبل أن يدخلوا القرية استأذنهم. ابتعد جانباً، وهناك تقيأ شيئاً أصفر اللون كأنه الغدة الصفراء. تقيأ دفقات ودفقات كما لو أنه قد شرب عشرة لترات من الماء. وعندئذ بدأ رأسه يتقد وأحس بلسانه معقوداً، فقال:

ـ إنني سكران.

رجع إلى حيث كانوا ينتظرونه. استند على أكتافهم، فجروه جراً، وراح يشق ثلماً في التراب بطرف قدميه.

* * *

وهناك في الوراء، نظر بيدرو بارامو الجالس على الكرسي، إلى الموكب المتجه نحو القرية. وأحس بيده اليسرى تهوي ميتة على ركبتيه عندما حاول رفعها؛ ولكنه لم يحفل بذلك. لقد كان معتاداً على رؤية عضو من أعضائه يموت كل يوم. ورأى الجنة وهي تهتز مفلتة أوراقها: «الجميع يتخذون الطريق نفسه. الجميع يذهبون». ورجع بعد ذلك إلى الموضع الذي ترك فيه أفكاره. وقال:

« ـ سوزانا ـ ثم أغمض عينيه ـ لقد طلبت منك أن ترجعي...

«... كان ثمة قمر كبير في منتصف الدنيا. وقد فقدتُ عينيّ وأنا أتطلع إليكِ. كانت أشعة القمر تتصفى على وجهكِ. ولم أكن أتعب من رؤية هذه الرؤيا التي هي أنتِ. ناعمة، مضمخة بقمر، فمك مفتوح قليلاً، رطب، مقزّح بالنجوم، جسدك يشف في مياه الليل. سوزانا، سوزانا سان خوان».

أراد رفع يده ليوضح الصورة، ولكن قدميه أوقفتاها وكأنهما قدتا من حجر. أراد رفع اليد الأخرى فتهاوت ببطء إلى جانبه، حتى استندت إلى الأرض مثل عكاز يسند كتفه المتعرق عظماً.

فقال:

«هذا هو موتي».

راحت الشمس تدور فوق الأشياء وتعيد إليها شكلها. وكانت الأرض الخراب أمامه، خاوية. وكان الحر يحمي جسده. وعيناه لاتتحركان إلا لماماً وهما تقفزان من ذكرى إلى أخرى، معيدتين رسم الحاضر. وفجأة يتوقف قلبه ويبدو كأن الزمن يتوقف أيضاً ويتوقف كذلك هواء الحياة.

وفكر: «المهم ألا تكون ثمة ليلة أخرى».

لأنه كان يخاف الليالي التي تملأ الظلام بالأشباح. كان يخاف حبس نفسه مع أشباحه. كان يخاف هذا.

«أعلم أن أبونديو سيأتي بعد ساعات ويداه ملطختان بالدم ليطلب مني المساعدة التي رفضتُ تقديمها إليه. وليس لديّ يدان لأغطي وجهي ولا أراه. سأضطر لسماعه، إلى أن ينطفئ صوته مع النهار، إلى أن يموت صوته».

أحس بيدين تلمسان كتفيه فقوّم جسده، مصلباً إياه.

وقالت داميانا:

ـ هذه أنا يا دون بيدرو. ألا تريد أن آتي لك بطعامك؟

وأجابها بيدرو بارامو:

ـ ها أنا ذاهب إلى هناك. ها أنا ذاهب.

استند إلى ذراعي داميانا ثيسنيروس وحاول المشي. وهوى بعد عدة خطوات وهو يتضرع في داخله، دون أن يقول كلمة واحدة. وارتطم بالأرض ارتطامة جافة وأخذ ينهار وكأنه كومة من حجارة.

بيدرو بارامو = pedro paramo / خوان رولفو؛
ترجمة صالح علماني. ـ ط ٢. ـ دمشق: دار الطليعة الجديدة،
١٩٩٨.ـ ١٤٣ ص؛ ٢٤ سم.
١ ـ ٨٦٣ م رول ب ٢ـ العنوان ٣ ـ العنوان الموازي
٤ ـ رولفو ٥ ـ علماني
ع: ١٩٩٨/٧/١١١٨ مكتبة الأسد